الفصل الخامس والستون
فى بيان ذهابنا إلى مولد أحمد البدوى عام ١٠٨٣هـ
وزيارتنا دمياط ورشيد والإسكندرية وغيرها
من الطرق والقصبات والمنازل والأضرحة

لقد شاهدت بما تيسر لى جميع الأضرحة الموجودة بمصر القاهرة، وقمنا بزيارة ضريح المشهور فى الآفاق والقطب على الإطلاق حضرة أبو السيتامى السلطان السيد أحمد البدوى، وصلنا إلى السيد أحمد البدوى نطلب منه المدد فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الآخر عام ١٠٨٣هـ.

خرج موكب مولد أحمد البدوى فى جمع غفير من المشايخ والمتصوفة وهم يذكرون الله واتجهوا إلى صاحب الدولة، وقد ذهب الحقير على الفور إلى ميدان سراى الباشا وانزويت فى زاوية واشتغلت بالمشاهدة، كان متصوفة ومريدو البدوى ـ والعظمة لله ـ ما يزيد على عشرة آلاف شخص يسيرون بالطبول والدفوف ويحملون الأعلام والرايات وبعضهم يحمل آلات الحرب والبعض الآخر يحمل فى يديه النبوت وفى خصورهم التنورة يذكرون الله، ويحملون مئات الآلاف من الرايات والأعلام، فأصبحت القاهرة فى ذلك اليوم مثل الحديقة المثمرة، سار الموكب حتى ميدان القصر وعندما قال الخليفة الأول للمريدين اذكروا الله وكان ذلك فى حضور الباشا، ردد المريدون كلمة التوحيد، ورفعوا الرايات المطلية بالذهب على رءوسهم ودُقت الطبول والدفوف ونفخ فى النفير، وانشغل ما يقرب من ثلاثة آلاف وسبعمائة شيخ وما يقرب من عشرة آلاف مريد حاسرى الرأس بالتوحيد والذكر وأطلق المجازيب الصيحات ودقت الطبول، حتى أن ميدان القصر أصبح كساحة الذكر، وأُقسم برب الكعبة أن صدى أصوات المريدين وهم يرددون الله الله كانت تصل إلى عنان السماء حتى أن الملائكة فى السماء كانت تغبطهم على ذلك، وبعد الذكر قام نقيب المريدين بحمد الله والثناء عليه ثم صلى على النبى ﷺ وأثنى على الكتخدا إبراهيم باشا، ثم تقدم الجميع بعد ذلك إلى الباشا أفواجًا، ثم قام أبو الخير

إبراهيم باشا بمقتضى قانون البدو وفرمان السلطان قايتباى بتحرير رسائل إلى حسن أغا كاشف الغربية وعلى أغا كاشف منوف ورؤساء البلوكات السبعة وبقية الأغوات بأن يتأهبوا بكامل أسلحتهم للمولد الشريف، ويوصيهم بالحفاظ على ميدان المولد دون تقصير، ويوصيهم بمنع انتشار الخمر وأماكن شرب البوظة وخيام البغايا ومنع أشقياء العربان والأشرار من الخروج إلى ميدان المولد.

وزيادة على المنحة التى يمنحها الباشا للمشايخ يقوم الباشا بإهداء ضريح البدوى قطعتين فن القماش الأخضر وبطمانين عود بخور وخمسين فثقالاً فن عنبر وسجادة حرير وأخرى إبريشم واثنان فن شمع العسل، ويعطى لكل رجل فائة بطمان فن الشمع، ويسلم الباشا ذلك كله إلى فصطفى الروفى خليفة البدوى فيقوم كل المشايخ بتقبيل يد الشيخ ويدعون له بالخير، ثم يبدأون فى التوحيد السلطانى فرة أخرى.

ويتعجب المفرطون من ذلك أشد العجب، وبعد الانتهاء من الذكر والدعاء للباشا يحملون كل الأشياء التى منحها الباشا لهم، ويقف رئيس الجلادين بعد ذلك فى ميدان القصر وينادى بصوت مرتفع مولد البدوى فى منتصف جماد الآخر، ويذهب كل المشايخ والشباب والمريدون إلى خلواتهم فى صفوف وترتيب كأنهم أمواج، وقد تحركت عواطفى لكى أشارك فى هذا المولد، ولكنى سألت نفسى بأى طريق سأقوم بتلك الزيارة الواجبة، وبعد المغرب جاءنى أحد الجنود الداخليين وقال لى تفضل يا سيدى إن الباشا صاحب الدولة يريدك، وعلى الفور ذهب الحقير إلى إبراهيم باشا وكان الحديث عن مولد السيد أحمد البدوى، وقد رأى الحقير أن هذه فرصة عظيمة اغتنمتها فقلت: يا سلطانى هلا أذنتم لنا بالمشاركة فى الدعاء بمولد البدوى، فوافق الباشا على مطلبى، وأصدر فرمانًا بخروج على كتخدا معنا، وأتى الكتخدا وأحسن على الحقير بمائة سكة[1]، وقد نزلت ضيفًا بمنزل إبراهيم أغا فى بولاق لمدة ثلاثة أيام بلياليها، وتجمع فى بولاق فى تلك الليلة آلاف العاشقين الموحدين، زينوا صفحة النيل المبارك بمئات الآلاف من القناديل

(١) السكة: العملة المضروبة.

والمصابيح، وانشغلوا بالذكر حتى الصباح، وفى صباح اليوم التالى أقام نقيب الأشراف وليمة عظيمة فى تكية إبراهيم الكلشنى فى بولاق، حضرها كل علماء وصلحاء ومشايخ مصر، خاصة قاضى العسكر، ومشايخ المذاهب الأربعة، وتناولوا الطعام واشتغلوا بذكر الله، وتصير تكية الكلشنى فى تلك الليلة مثل النور، وقد ذكرنا ذلك من قبل عند وصف الموالد، وبعد ذلك ينفض الجمع.

وفى صباح اليوم التالى يركب جميع مريدى البدوى وسائر مريدى الطرق الأخرى والبحارة فى اثنى عشر مركبًا تسمى مراكب العقبة، تتسع كل مركب منها لألفى رجل إنها مراكب تشبه القروانة، الواحدة منها أربعة طوابق الطابق الأسفل عبارة عن المخزن وبه الطعام والشراب وسائر المهمات واللوازم، والطابق الذى يعلوه خاص بالنساء، ثم الطابق الخاص بمشايخ المريدين، والطابق الذى يعلوه للفلاحين ومساعدى الربان والزوّار، لقد شُيد المركب طابقًا فوق طابق ومقصورة فوق مقصورة، ويستغرق كل فرد فى وجده وشوقه، وهذه المراكب المذكورة من أوقاف السيد أحمد البدوى وتُحصّل كل مصاريفها من وقف السيد أحمد البدوى، وتُزين صوارى تلك المراكب بالرايات والأعلام كما يقف المشايخ على جوانبها الأربعة يحملون آلاف القناديل والرايات، وبخلاف تلك المراكب المسماة العقبة، يستأجر آلاف الزوار والمشايخ حوالى مائتى قطعة من الزوارق والقوارب والسفن الصغيرة، حيث يزينون صفحة نهر النيل، وفى وقت الضحى يتحرك الموكب من مدينة بولاق باثنتى عشرة سفينة كبيرة تسمى «عقبة» وما يقرب من ستمائة أو سبعمائة مركب صغير تحمل جميعها حوالى أربعين ألف أو خمسين ألف شخص، ثم يُطلق الجنود الموجودون طلقة من البنادق وطلقة من المدافع، ثم تدق طبول خليفة البدوى، ويردد كل المريدين كلمة التوحيد، وتسير المراكب مع اتجاه النيل، ويُنفخ فى النفير.

وعندما يصل المريدون إلى المكان المواجه لإمبابه يقرأون الفاتحة، ويعقدون النية على الذهاب إلى البدوى، وفى هذه الأماكن بخلاف السفن استشعر الحقير الذوق والصفا مع

ثمانية مشايخ فتارة مع الشيخ مصطفى الرومى وتارة مع الشيخ عثمان الكلناسى والشيخ الإمبابى والشيخ أحمد القليوبى.

وشاهدت القصبات والبلدان المعمورة التى تشبه الجنان على ضفتى النيل المبارك، ودَوّنّا أوصافها فمنها:

قصبة شبرا الواقعة على ساحل النيل فى مكان قريب من مصر القاهرة بثمانية أميال وهى قصبة عامرة آهلة بها ألف منزل وسبعة جوامع وأسواق وحمام، وتزينها بساتين النخيل، ويديرها رئيس فرقة من طائفة إنكشارية مصر، وتشتهر شبرا بالبطيخ والشمام والذاهب أو الآتى منها يشترى البطيخ، يحصل منها ألفى قرش سنويًا، وهى مركز الإنكشارية، ولها ملتزم.

ثم تقدمنا مسيرة عشرة أميال فبلغنا جزيرة بطن البقر، وهى عبارة عن رأس فى وسط النيل المبارك يتفرع عندها النيل إلى ذراعين، فقد قام سيف بن ذى اليزن بشق هذين الذراعين بعد عصر نوح ـ عليه السلام ـ، الذراع الأيسر منه يتجه ناحية الغرب، إلى بندر رشيد وطوله ( )[1] ميل أما الذراع الثانى وهو الأيمن فيتجه شمالاً إلى بندر دمياط وطوله ( )[2] ميل، وبين هذين الذراعين جزيرة عظيمة عبارة عن كشوفيتين؛ الأولى كشوفية الغربية والثانية كشوفية المنوفية، وهذه الجزيرة مزينة بآلاف القرى العامرة، بوسطها مقر كشوفية الغربية وعلى أرضها قصبة طنطا المدفون بها السيد أحمد البدوى، وهذه الرأس المسماة بطن البقر تقع فى أرض المنوفية وكل مراعيها أميرية، حيث يقوم رئيس فرقة الجبه جيه[3] بمصر بتجفيف الفروع والأخشاب الموجودة بتلك المراعى وتحويلها إلى فحم حيث يضعونه فى مصر على البارود الأسود، فتزداد قوة البارود، وقد سرنا من هذا المكان بالسفن فى ذراع النيل المتجه إلى دمياط، وعبرنا قنطرة الملك الطاهر الواقعة يمين أرض قليوب، وهى جسر عظيم به ألوان قوس قزح يعبره الذاهبون من مصر إلى قليوب وإلى المنصورة ودمياط، إنه صراط عظيم لم نشاهد مثله،

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

(٣) سلاح الذخيرة.

ثم مررنا بقرية مصرخيم الواقعة على ضفاف النيل، والشيخ عبد الله مصرخيم مدفون بها فى ضريح مغطى بقبة صغيرة بيضاء، وقد توقفت كل المراكب أمام هذا الضريح ودُقت الطبول وذكرو الله، ثم أبحرت المراكب مرة أخرى، وهذا المكان هو الحدود بين الغربية والمنوفية، وتلاطم النيل فى هذا الموضع شىء ظاهر، وقد تحطمت بعض المراكب من شدة تيار المياه، وعبرنا ذلك المكان والكل يسأل الله أن نعبر طريقنا بسلام، ويصل ماء النيل إلى قمة اندفاعه، وفى وقت الغروب ترسو كل السفن على جانب النيل، حيث يكونوا فى مأمن من الإبحار ليلاً، وفى ذلك المكان قرية تسمى قرية العفريت، وهى قرية كبيرة تقع فى أراضى الغربية بها مائتى منزل وجامع، ويشتغل معظم الأهالى هناك بصناعة الأكواب، وبها قصر مشهور مثل حدائق إرم، قام ملوك مصر السلف بصرف خزينة على هذا القصر من خزائن مصر، وفى وقت قريب سكن هذا القصر شخص يدعى فضلى أغا، وفى أحد الليالى رأى فضلى أغا شخصًا عظيم الجثة يهجم على القصر، فظن فضلى أغا أنه لص فجمع الحراس وتسلحوا ونادى فيهم أن يهجموا على اللصوص وعندما أطلقوا النار وضربوا بالسيوف، أصيب أحد اللصوص ولكنه لم يمت، أما حراس فضلى أغا فقد أصيب بعضهم بالصرع وأصيب البعض الآخر باعوجاج فى يده وفمه وأنفه، وبالرغم من ذلك ظل فضلى أغا وحراسه يحاربون بشجاعة لمدة ساعة، ثم فروا هاربين من القصر، ثم سد أهالى القرية باب القصر بالطوب وظل على حاله حتى الآن، ولا يستطيع أحد أن يدخله، حتى عندما وصلنا هناك سألنا أهل القرية عن هذا القصر فقالوا: «إنهم فى بعض الليالى يرون قناديل تضىء فوق سطحه، ويسمعون صوت دق الطبول، وفى صباح تلك الليالى يجدوا على حوائط القصر منسوجات بيضاء وسوداء لا هى من صوف الإبل ولا هى من صوف الأغنام، إنها منسوجات لا مثيل لها فى الدنيا، إنه بلاء مسلط على قريتنا، ولكن لا ضرر منه على أولادنا وأهلنا».

أما فضلى أغا وجميع حراسه فإنهم يعيشون الآن بصحة جيدة، ولا يعرف أحد مقدار أمواله التى تركها فى القصر عندما فر هاربًا، فقد زادت الضعف وهذا ما نقله

أهل القرية لنا، ويخرج كل الزوار من المراكب وينزلون على شاطئها ويطهون الطعام، وقد أخذ الشيخ مصطفى الرومى عشرة نعاج وطبخها وقدمها للجوعى والمساكين مصداقًا لقوله - تعالى -: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] فمما لا شك فيه أن هذا الجمع الكبير من الناس به المساكين والأيتام والفقراء حيث يتناولون الطعام جميعًا، وبعد الطعام والحمد والثناء يبدأ الذكر، وفى وقت العشاء تسكن الرياح ويطلق الشيخ مصطفى طلقة مدفع من سفينته فيسير الموكب وتُشعل آلاف القناديل فى المراكب وتطلق السفن قذائف المدفعية والبنادق الفشنك.

وقد مررنا فى تلك الليلة ببلدان وقرى عامرة بالحدائق والبساتين وكأنها حدائق إرم، وتزينت صفحة النيل المبارك بالسفن، ويتولى الملاحون توجيه السفن يمينًا ويسارًا حتى يتمكنوا من اجتياز هذا المكان بسلام، بينما الراكبون يذكرون ويرددون يا مولا يا فتاح، وعندما يقول الشيخ مصطفى خليفة البدوى اذكروا الله يا إخوان، يرد كل العاشقين والمشتاقين بكلمة التوحيد لا إله إلا الله ويبدأ المريدون فى التهليل فيصبح وجه النيل المبارك كله ذكرًا لله، ويُغمر ماء النيل فى النور ويُدهش كل الموحدون ويصيحون وقد غابوا عن الوعى من شدة الوجد، وعندما يستمع أهالى القرى الواقعة على ضفاف النيل، وتسير السفن على هذا النحو حتى صلاة الفجر وعند صلاة الصبح ترسو كل السفن على جانب النيل.

منزل قصبة التفاحية وهى قصبة عامرة تقع فى أراضى الغربية بها ثلاثمائة منزل وحدائق وبساتين نخيل وجامعين ذوى مئذنة رشيقة موزونة وما يقرب من أربعين أو خمسين حانوتًا وحمام، ولهذه القصبة ملتزم، بالجهة الجنوبية لها ضريح السيد داود العرب وهو مجاور لجامع باسمه، وللسيد داود العرب مولد كل عام يجتمع فيه أناس كثيرون، إنه شيخ عظيم فى منزلة السيد البدوى وله مناقب فى طبقات الشعراوى، ولو دخل قاتل أو لص أو مدين تكيته لا يستطيع الحاكم أن يقبض عليه، وذلك لأن المتهم الذى يدخل التكية لو ثبت فى حقه أنه مذنب فإنه يتوب بمجرد دخوله التكية، كما أن الدائن إذا دخل التكية يؤدى ما عليه، إنه سلطان عظيم قُدّس سره العزيز، ويقوم كل

الزوار بزيارة تكية الشيخ داود العرب ثم يركبون السفن مرة أخرى ويبحرون مقدار ثلاثين ميلاً حتى يصلوا إلى قرية مبهوم وقرية شبراتين وهما قريتان عامرتان بهما ثلاثمائة منزل وبساتين نخيل وجامع، تقع هاتان القريتان فى أراضى الغربية، ويمر الزوار من عليهما ويبحرون مقدار عشرة أميال.

أوصاف قصبة زفتى وتعنى فى اللغة العربية ( )[1] وترسو كل السفن على جانب النيل المبارك فى الجهة الشمالية لهذه المدينة ويخرج منها كل الزوار وينصبون آلاف الخيام على ضفاف النيل حيث يبيتون بها يومين ويأتى الجمالون والبغّالون وأصحاب الحمير من كل القرى لتأجير الدواب لتحميل أمتعة وأغراض الزوار، والمسافة بين زفتى والسيد أحمد البدوى خمس ساعات تقريبًا.

أوصاف مدينة زفتى

مدينة زفتى عبارة عن قضاء شريف يُحصل مائة وخمسين أقجة، تقع على ضفاف النيل تحت حكم حاكم الغربية ويتبعها سبعون قرية عامرة، يحصل لقاضيها سبعة أكياس من الأموال المصرية، وكل قرى زفتى إلتزام لعباس أغا الذى كان أغا للبنات قبل ذلك، ومدينة زفتى مدينة عامرة، بها خمسمائة منزل للفلاحين كما يوجد بها بساتين للنخيل وغلالها مشهورة وقمحها جيد وبها ثلاثة جوامع؛ الأول منها الجامع الكبير عند الميناء ويبلغ طوله مائة خطوة وعرضه مائة خطوة أيضًا، له مئذنة ذات ثلاثة طوابق وثلاثة أبواب، وبفنائه شجرة سدر، ويوجد جامع آخر بالقرب من الميناء وهو جامع صغير له مئذنة واحدة ذات طابق واحد، ويوجد جامع ثالث صغير بنائه حديث، وبخلاف تلك الجوامع توجد سبعة زوايا بالمدينة ولا يوجد بالمدينة مدرسة أو حمام، وبها خمسة وعشرين حانوتًا وستة مقاهٍ وبها الجاموس والأبقار البلدية، ولعدم وجود حمام بالمدينة يذهب الأهالى إلى حمام عباس أغا بواسطة القوارب، وفى الناحية المقابلة لزفتى

(١) بياض فى الأصل.

فى أراضى المنصورة تقع مدينة ميت غمر، وتعنى فى اللغة العربية ( )[1] وهى قضاء مائة وخمسين أقچة تقع تحت حكم حاكم المنصورة يتبعها ( )[2] قرية، يحصل منها سنويًا ستة أكياس والتزام هذه المدينة للأمير أبو السيف أحمد بك وهو من أمراء مصر، وتشتهر ميت غمر بسكرها ويكثر بها الرُّمان والتمر، وبساتينها ونخيلها ممدوحان، والمدينة تقع فى صحراء واسعة على ساحل النيل بها أربعة آلاف منزل معظمها مغطى بالطوب الجيرى، وتشتهر المدينة بأعيانها وعلمائها وأشرافها، فقد اشتهر العلماء الغمراويون فى كل أقاليم مصر، فبها المئات من المصنفين والعلماء والمؤلفين وبالمدينة تسع نواحٍ تتبعها، وبها خمسة وأربعون محرابًا منها تسعة جوامع جامعة فقط، أما الباقين فهى مساجد صغيرة، وهى على التفصيل؛ الجامع الكبير ويقع فى السوق وهو من بناء حماد بن بقر ويتسع لجماعة كبيرة، يبلغ طوله مائة خطوة وعرضه ثمانين قدمًا، وبه مئذنة رشيقة ذات ثلاث شرفات عند باب الجامع، يبلغ طول تلك المئذنة مائتين وخمسين قدمًا تقريبًا وفى أعلاها مكان للراية كما تعلوها قبة صغيرة تشبه الكوب، يعلو ذلك كله راية خضراء وحاصل القول أنها مئذنة غاية فى براعة البناء لا يمكن التعبير عنها، ومحراب المسجد ومنبره على الطراز القديم، وحول فناء المسجد وبداخله ستة وثلاثين عامودًا من المرمر الملون، وللجامع ثلاثة أبواب لكل منها سلم يبلغ خمسة أقدام لأسفل ينزل من خلالها إلى المسجد، ودائمًا ما يكثر العلماء فى هذا المسجد يدرسون ويتباحثون فى المسائل العلمية، كما يتواجد به أشخاص من أتقياء الأمة، أما الجامع الموجود عند رأس الميناء فهو جامع جديد ويتسع لأناس كثيرون، وبالقرب من المحكمة الجامع المعلق، وقد أسموه المعلق لأنه يصعد إليه بسلم حجرى يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر قدمًا ويدنو من الجامع حوانيت وميضئة للوضوء وحوض شافعى، إنه جامع غاية فى الجمال، وجامع آخر لم نعلم اسمه، أما المحاريب الباقية فهى مساجد صغيرة لا تعد جوامع، وبالمدينة سبعة مدارس، واثنا عشر مكتبًا للصبيان، وأسبلة فى سبعة أماكن بالمدينة وسبع وكالات تجارية وستمائة حانوت، ولا يوجد بها سوق مبنى بالطوب، إلا أن تلك الحوانيت المذكورة بها كل شىء، وتنتشر المقاهى بها

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

على ضفاف النيل، وكان القرآن يُتلى فى كل دكاكين الحرفيين، فيوجد هناك حَملة القرآن، وبها أيضًا ما يزيد على ثلاثة آلاف مفسر ومحدث إنها مقر العلماء التى تلى الأزهر الشريف إنها ميت غمر، وبها رجال عظام يقولون عليهم علماء الغمراوى، والحمد لله أن ذهبنا إلى هذا العالم وهو يشرح تفسير ابن جرير ودعا لنا بالخير. ويشتهر أهالى ميت غمر بالذكاء، وهى بلدٌ هواءُه لطيف وماءُه عذب، وعشاقها مشهورون فى الآفاق، حتى أنه فى بعض البلدان عندما يريد أحدهم مدح محبوبته يصف عينها بأنها عين حوران وعين الغمراوى، والعجب أن أهل مصر لا يضعون كُحْلاً فى أعينهم لذا تجد أعينهم جميعًا مشوشة، أما عين الغمراوى فهى ممدوحة بين الناس، وخلاصة القول إنها مدينة كثيرة الغلال.

فى بيان الأضرحة الموجودة بميت غمر

ضريح الشيخ عبد الله وهو مدفون فى قبة عالية فى المكان المقابل للمحكمة، ووسط بساتين النخيل الواقعة فى الجانب الشرقى خارج المدينة توجد أضرحة كُلٌّ من الشيخ محمد المنصورى والشيخ عز الدين الواعظ والشيخ شجاع الدين الشنلوانى والشيخ سيد خلف والشيخ سيد محمد القصرى والشيخ يونس الأحمدى والشيخ محيى الدين والشيخ إسماعيل والسادات الأربعين والشيخ محمد الهندى والشيخ أحمد الزنفلى ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ.

كما دخلنا حمام المدينة ويُعَدّ حمام ميت غمر من الحمامات السبعة المشهورة فى مصر، بناءُه ومياهه وهواه فى غاية اللطف، أدينا صلاة الجمعة فى الجامع الكبير، وكان لنا نصيب من دعوات أهل الحال، وركبنا المراكب مرة أخرى ومررنا بقصبة زفتى من الناحية المواجهة لميت غمر، وتوجهنا صوب ناحية الغرب مع مجموعة من الخيالة العرب وخمسة من الجنود ومررنا بعشرين قرية عامرة بحدائق النخيل والبساتين ودخلنا قرية شرسنة ومكثنا هناك فترة حيث تناولنا الطعام، إنها قرية عامرة بها مائتى منزل معظم أهلها من السادات الكرام، أجدادهم حضرة الشيخ أبو العز والشيخ على المدنى والشيخ

رمضان الـواحدى وكلهم راقـدون فى أضرحتهـم إلى يوم الديـن، تقع هذه القـرية فى أراضى منوف، بها جامع وتكية ودار للضيافة كثيرة الخيرات وهى التزام ليوسف أغا أغا الانكشارية من أغوات الكتخدا إبراهيم باشا. ويُحصل منها سنويًا ستة أكياس.

وفى الساعة الثالثة وصلنا مدينة العرش الـقديم المدينة العظيمة منوف، وكلمة منوف كلمة قبطية تعـنى العدد ثلاثين، فقد بُنيت عدة قرى بعد طوفـان نوح منها قرية الجودى الواقـعة تحت سفـح جبل الغـورى بالقرب مـن الموصل، كمـا تم بناء مديـنت بلبيس والعريش ومـن بعدهم مدينـة منوف فى أرض ساحان، وتقـع المدينة فى صحـراء تبعد ساعتين عن شرق النـيل وساعتين عن غربه، ويقول المفسرون أن منـوف مدينة القدماء، وهى المدينـة المقصودة فى الآية الـكريمة: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ {القصص: ١٥} ويذكر المؤرخ المـقريزى فى خططه ما نقله عن تواريـخ القبط والتواريخ التى كـانت موجودة أيام الخـليفة المأمون وهـى التواريخ الخاصـة بإدريس عليـه السلام ووجدها المأمون فـى جبل الأهرام، أن فرعون موسى خرج مـن ديار الموصل فى أرض بابل وسكن فى مدينة منوف وترعرع بها، ثم أصبح حاجبًا على مصر ثم حاكمًا عليها، واتخذ منها عاصمة له، وعَمّرها أكثر مما كانت عليه.

وبداية عمران هذه المدينة كانت فى عهد بيظر بن حام بن نوح، فقد استأذن بيظر من جده نوح ـ عليه السـلام ـ بعد الطوفان وجاء إلى جبال الأهرام المواجـهة لمصر القديمة، وكان معه حماه الحكيم قليمون، فلم يجد بيظر وقليمون أى أثر للأبنية التى كانت عامرة قبل الطوفان إلا جبال الأهرام، وقد رأى بيظر وقليمون أن هذا المكان لا يصلح أن يكون سكنًا لهما، وسارا حتى بلغا الموضع الـذى به منوف الآن، وبدأ فى بناء المدينة، وبيظر بن حام بـن نوح هو النـبى الذى وطأت قـدمه مصر بـعد الطوفـان، وكان معه تسعة وعشرين شخصًا أى أنـهم كانوا ثلاثين شخصًا وهذا سبب تسمـية المدينة منوف، ومن يقول أن أصل كلـمة منوف من ماف فهو غلـط، وعمّر بيظر بعد ذلـك مائة عام، وقد أنشـأ بمدينة مـنوف الآثار الكـثيرة ويعـد بيظر بـن حام هو أول حاكـم على مصـر فى التاريخ، وأول بناء له هو مدينة منوف هذه، واستخرج الكنوز الكثيرة من باطن الأرض

بناء على تعاليم حماه الكاهن قليمون، وبنى سبعمائة مدينة محصنة بالأسوار، وبيظر هو أول من شق الخلجان والأذرع من نهر النيل على أرض مصر بحساب الهندسة، وقد توفى بيظر والحكيم قليمون بعد السنة السادسة بعد ثمانمائة وألف بعد الطوفان ودفنا فى الهرم الواقع فى الجهة الغربية لهضبة الأهرام، وهما أيضًا أول من دفنا فى مصر بعد الطوفان، وأصبح ابنه مصرايم حاكمًا مكان أبيه وهو الذى قام ببناء مصر القديمة لذا سموها مصر على اسمه، واتخذ مصرايم مدينة منوف عاصمة له مثل والده وعمرها أكثر مما كانت.

بعد ذلك تولى عرش مصر دلوكه بنت زيباك، وكانت منوف فى عهدها عامرة للغاية حيث بنت قلعة لم يبنى مثلها فى ذلك الوقت، كان لهذه القلعة سبعون بابًا، وقد صُفِّحت كل الآثار بالرصاص والحديد والنحاس، وأصبحت دلوكه هذه ملكة على مصر بعد أن ظلت زوجة لفرعون عشرين عامًا، واتخذت من مدينة منوف عاصمة لها، وقد تزينت المدينة فى عهدها إلى أقصى درجة حتى أن كل الأسطح والأسقف كانت مغطاة بالفضة الخالصة، وكل زجاجها من النجف والزجاج والبللور، وبعد استشهاد يحيى - عليه السلام - أى قبل ميلاد الإسكندر بمائة وعشرين عامًا خرج بخت النصر[1] من مدينة الموصل، وضرب مدن الشام والقُدس ومصر ومدينة منوف عاصمة مصر وحوّلها إلى تراب، وأحرق بنى إسرائيل وبذلك انتقم بخت النصر لدم يحيى - عليه السلام - نظم:

خرّب بخت النصر مصر ... فلم يَبْقَ بها إيوان أو قصر

وبأرض جزيرة الغربية كشوفية أخرى هى كشوفية منوف، التزامها مائة وسبعون كيسًا، كان حاكمها ميرزا الكاشف يشتهر بالشجاعة والصلاح حيث كان حاكمًا على منوف وخمسمائة ناحية تابعة بها، وتحت إمرته ألف جندى من جنود الفرقة السابعة من جند مصر، كانوا يحصّلون الأموال الأميرية له ويقدمون كل عام مائة كيس من العملات المصرية، وهى أعلى حكومة، كما يتحصل لكل الملتزمين مائة حِمل من العملات

(١) هو بختنصر، والخبر فى المعارف لابن قتيبة ٤٦ - ٤٧ وغيره.

العثمانية، ويتحصل لكل مشايخ الفلاحين وأصحاب البلاد ألف حِمل من المال، وهذا مدون فى سجلات الأحوال اليومية.

ومنوف قضاء شريف به ثلاثمائة وعشرين قرية عامرة، يُحصّل من كل قرية منها للقاضى عشرة أكياس سنويًا، ويبقى للملتزم طرقجى زاده سبعة أكياس من كل قرية، ولأن منوف كانت مدينة العرش الفرعونى فإن فلاحيها كانوا عصاة وملاعين وبلا حياء ودائمًا ما يجمعون بعضهم لمحاربة الكاشف وقد هزمهم الكاشف وقتل بعضهم وحبس البعض الآخر.

عجيبة وغريبة

لقد ذكرنا أن أهالى منوف قومًا معاندين ملاعين، ولو أصدر الكاشف حكمه بقتل أحد أشخاصها يتجمع أهالى هذا الشخص المحكوم عليه بالقتل ويذهبون للكاشف ويلتمسون منه الرجاء بعدم قتل هذا المجرم وإنهم سوف يدفعون الدية، وقد عُرف عنهم أنهم منهم اللص والنشال وقاطع الطريق وصاحب اللموم أى الذى يشعل الفتنة بين الجند، وهؤلاء جميعًا ينبغى قتالهم.

وبمدينة منوف جند تحت إمرة الكاشف وأسماءهم تختلف عن أسماء الروم فمنهم الأمير أوزبك والأمير تيمور وتيمور طاش وتمرس وقنصوه وغورى ولاجين وقرصفاى وبولاد وكرتباى وشاهين وسيتال وجابة بذرى وجابة الدى وجابة وردى وأسد وسيفى وجانبولاط، ويسير هؤلاء الجنود دائمًا وفى خصورهم السلاح، كما أن لهم منازل عامرة ولم يتبقى بالمدينة من آثار الأوائل إلا سبعة عشر محلة وأربعين جامعًا.

من تلك الجوامع الجامع الكبير وهو جامع فسيح به أربعون عامودًا تحمل السقف، وله مئذنة، وثلاثة أبواب، وبفنائه شجرتى نخيل ارتفاعهما كبير وحجمهما كبير أيضًا، ولا يوجد مثلهما فى إيالة مصر كلها، وقد قيل أن هاتين النخلتين مزروعتان من أيام الملكة دلوكه وأنها كانت تعقد الديوان عندهما.

وبالسوق جامع الصوين وبه ثمانية عشر عامودًا تحمل السقف المزين بالنقوش، وأسفل الجامع حوانيت، ولوجود الجامع فى السوق فإن جماعته كثيرة، وللجامع مئذنة

بديعة البناء. ثم جامع الشيخ موسى وهو جامع لطيف، وبخلاف تلك الجوامع توجد المساجد الصغيرة، كما يوجد بالمدينة أربعين مكتب للصبيان وثلاثة مدارس وسبعة وكالات وأربعمائة حانوت وبالرغم من عدم وجود سوق للقماش إلا أن كل وكالة من الوكالات السبع المذكورة بها حانوت لبيع الأقمشة، كما يوجد حمامان قديمان أحدهما من أيام فرعون، والحقيقة لا يوجد بناء يشبهه منذ خمسمائة أو ستمائة سنة، وبالمدينة أربعون سبيلَ مِيَاهٍ، وعند رأس الزاوية فى مواجهة جامع الصوين داخل السوق يوجد سبيل مياه، ماءه هو ماء الحياة، وبالرغم من أنى شاهدت كل هذا العمران بمدينة منوف، إلا أن أطلالها وأخنانها القديمة كثيرة، وهذا دليل على قدم المدينة، فالأخنان الموجودة فى الجهات الأربعة من المدينة لا توجد فى أى مكان آخر فى مصر سوى فى هذا المكان، حتى أن قصر فرعون غاص فى الرمال، ويقوم الأهالى بإلقاء القاذورات فى مكانه، وتراكمت تلك القاذورات فوق بعضها البعض حتى صارت كالجبل، وعندما يفيض النيل تأتى المراكب لمدينة منوف ويشترون البضائع والأمتعة.

يتميز طقس المدينة بأنه طقس لطيف، رغم أنها كانت مدينة الفراعنة، إلا أنه يوجد بها أشخاص من صلحاء الأمة.

مزار منوف

لأن مدينة منوف مدينة مذمومة، لم يستوطنها أحدٌ من كبار الأولياء، إلا بعض المشايخ وذلك للنص القرآنى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وهم: مقام الأربعين، ومقام الشيخ ليمان البجوى، ومقام الشيخ دالكون، وهو قبة صغيرة بالسوق، وهو سلطان عظيم، يقام له مولد كل عام ويقال إن كل أرواح الأولياء تأتى يوم مولد هذا الشيخ للزيارة، بل إن الأهالى شهدوا على أن يوم مولد هذا الشيخ يجدون دخانًا أخضر ينبعث من الضريح وينتشر فى كل طرقات المدينة وتنتشر الرائحة الطيبة فى كل الطرقات، ويقال إنهم لم يشاهدوا شخصًا رأى العين بل يسمعون صوت طرق نعال داخل الدخان، رحمة الله عليه، وقد قام الحقير بزيارته فأحسن عليه الكاشف بجواد كحيلانى.

وخرجنا من منوف مع عشرين خيالاً من العزب وسرنا فى اتجاه الشمال خمس ساعات حتى وصلنا بلدة طوخ النصارى وكل سكانها من القبط، وقد كانت مدينة عظيمة قديمًا ولا تزال آثارها ظاهرة للعيان، ولم يتبقى من منازلها إلا ثمانمائة منزل فقط وثلاث أديرة، ولهذه البلدة مكانة عند كل القبط، فهى مسقط رأس الملك القبطى الملك طوطيس وهو مدفون فى أحد الأديرة هناك، وهذا الملك طوطيس هو الذى أهدى سيدنا إبراهيم أمنا هاجر والدة سيدنا إسماعيل، وقد ولد فى تلك المدينة الملك المقوقس الذى كان يحكم مصر أيام فتح عمرو بن العاص، ولهذا فإن كل القبط يعظمونها، ويزورونها مرة كل عام، والملك المقوقس هو الذى أرسل مع ذى النون المصرى البغلة والسيف وفتاتين من القبط إلى سيدنا محمد ﷺ، أهدى الرسول ﷺ فتاة منهما إلى حسان بن ثابت وأنجب منها حسان ابنه عبد الرحمن، أما الثانية وهى مارية فقد أخذها النبى ﷺ لنفسه وأنجبت له ابنه إبراهيم، وأهدى السيف والبغلة إلى على بن أبى طالب وهذا السيف هو ذو الفقار، وقد نظم العجم فى هذا السيف:

لا فتى إلا علىّ، ولا سيف إلا ذو الفقار

أما البغلة فهى دلدل. وبقرية طوخ النصارى مكان منخفض به آثار حوافرها، لأنها مشت فيه، لذا فإن كل القبط يأتون لزيارة هذه القرية، ملتزمها هو على افندى الروزنامجى فى إستانبول ويحصل سنويًا سبعة أكياس، وقد سرنا فى تلك القرية، ثم هرولنا فى المسير حتى نتمكن من الوصول إلى مولد أحمد البدوى قبل المولد بيوم، واجتزنا القرى العامرة فى خمس ساعات.

أوصاف قصبة طنطا

مرقد أبو اليتامى السلطان العلوى

وقطب الأقطاب السيد أحمد البدوى قُدّس سره

مدينة طنطا مدينة مباركة مدفون بها السيد أحمد البدوى، تقع فى مكان مرتفع بالصحراء فى أراضى الغربية، ملتزموها ثلاثة وهم مكلفون بجمع المحاصيل، ويحصّلون منها سنويًا عشرة أكياس ويقدمونها للجانب الميرى، وتعد المدينة بمثابة مركز

كاشف الغربية وهى مدينة آهلة بها ألف وخمسمائة منزل بدون حدائق أو بساتين، ويتبعها ستة محلات وبها ثمانية جوامع هى جامع السلطان قايتباى وهو جامع عظيم مثل القلعة من جوامع السلاطين السابقة، وبه ضريح السيد أحمد البدوى، لذا يعج الجامع بالناس ليل نهار، يبلغ طول فنائه مائة وعشرون خطوة وعرضه مائة خطوة، والمحراب والمنبر على الطراز القديم، وبالجامع وفنائه ستون عامودًا من المرمر أربعة وعشرون منها داخل الجامع والباقون فى الفناء، على تلك الأعمدة قبوات عظيمة يعلوها السقف المزين بالنقوش والسطح مغطى بالجير وللجامع مئذنتين الأولى فى الناحية اليمنى وبها ثلاث شرفات، ويبلغ ارتفاعها مائتى قدم، وبهذا تكون تلك المئذنة أعلى من مئذنة جامع السلطان حسن فى القاهرة إنها مئذنة بديعة الصنع.

ويقع ضريح البدوى على مقربة من تلك المئذنة، أما المئذنة الواقعة فى الناحية اليسرى فهى مئذنة قديمة مثل البرج بها شرفتين ترتفع لخمسين قدمًا، بين كل قدم وآخر مقدار ذراع وهى منخفضة عن الأخرى، ولا توجد رايات فوق تلك المآذن، ولكن تعلوهما قبتين صغيرتين مثل القلنسوة البكتاشية.

أسفل هذه المئذنة المنخفضة صهريج كبير لسبيل مياه، يُمْلأُ هذا الصهريج خمسة عشر راوية (قربة)، ويكفى ماؤه كل الزوار، وبالقرب منه صنابير مياه مظللة بقبة مثل قبة القصر، مغطاة بالكلس، إنه خيرات عظيمة، وعلى مقربة منه حوض مياه يطلق عليه حوض الشافعى وهو حوض عظيم مثل البركة، تحيط به المراحيض من جوانبه الأربعة، أما أعلى الحوض فتوجد غرف للطلاب والمريدين ولهذا الجامع أربعة أبواب اثنان منها جانبيان الأول للميضأة والثانى باب صغير عند حائط القبلة والباب الثالث باب القبلة وهو الباب الرئيسى وتعلوه لوحة مرمرية بيضاء كتب عليها (جدد هذا الباب المعظم الإمام المعظم مالك المماليك السلطان أبو النصر قنصوه الغورى خلد الله خلافته فى تاريخ ذى الحجة الحرام من إحدى وعشرين وسبعمائة) ولكن الجامع من بناء السلطان قايتباى، وقد اطلع الحقير ذات مرة على أوقاف الجامع، ولكل باب من الأبواب الثلاثة للمسجد سلم حجرى يرتفع ثلاثة أقدام.

أوصاف ضريح أحمد البدوى

يتصل ضـريح البدوى بالبـاب الأيمن للجامع، وتـوجد قبة عظيـمة مطلية بـالكلس الأبيض الذى يـشبه اللؤلؤة ذات أعلام خـضراء بين القباب الجانـبية الواقعة فى الـناحية اليمنى للـجامع إنها قبة تكية القطـب الربانى أحمد البدوى، بوسط هذه الـتكية ضريح البدوى وهـو عبارة عن صـندوق من خشـب السرو مغطـى بقماش مـن أستار الكـعبة المرصعة بالنجوم المذهبة داخل سياج خشـبى على شكل مصبعات، وعلى كل زاوية من زوايا الصندوق كرة من الـفضة الخالصة، وفى وسطه عمامة خضـراء أرسلها والى مصر أبو الخير الكتخدا إبراهيم باشا لتكون علامة على موضع رأسه المباركة.

وذهب الموكب الذى يضم مشايخ الطرق وخلـفاء البدوى وعشرين ألف مريد على دق الطبول والتوحيد لإيصال القماش الشريف للضريح، وقام خليفة البدوى بلف القماش على هيئة العمـامة عند رأس البدوى وسط التكبيـر، كما قاموا بلف الضريح بالـقماش المنقوش والمشغول بالـذهب والفضة، والأقمشة المزينـة المطرزة بالذهب والفضة فـى ضريح البدوى كثيرة، ولا يسـتطيع أى شخص من الخدم أو غـيرهم أن يمد يده ليأخذ واحـدة منها، وقد عمد الكثيرون إلى هذا ولكن أيديهم شُلّت عـن الحركة ووضعت الهدايا التى جلبها الوالى وفرشت السجادة وأُشعل بخور العنبر فامتلأت القـبة بالرائحة الطيبة، وعلى شبكة الضريح توجد معلـقات كثيرة قيمة كل واحدة مـنها تساوى خراج الروم، كما تـوجد تحف وأشياء ثمينة حول الـضريح من جهاته الأربعة مثل الشـمعدانات الفضية والذهبية الـتى يبلغ طول الواحد منها مـثل طول الرجل، وشمعدانات نحـاسية وأوانى فضية وذهبية ومـباخر فضية وذهبية وأكـواب فضية، والضريـح من الداخل مزين بالخـطوط الجميلة وهـى من خطوط ياقوت المستعصمى والشيخ قره حصارى، وبالجوانب الأربعة توجد مئات الشموع الكبيرة، التى تزن الواحـدة منها ثلاثة أو أربع قناطيـر، وكلها من هدايا ملوك الكـفار وذلك لأنهم يعتقـدون فى البدوى أيضًا، ويفـرج عن الأسر من الزنزانـات وتقطع سلاسلهـم ويمنحون الحرية، ويُرسل سلاطين البلدان الإسلامية فى الأقالـيم السبعة الهدايا والتحف إلى البدوى تبركًا، مـنها الجواهر والقنـاديل المرصعة والأكواب والأبـاريق الفضية، وكل هـذه التحف

والأشياء الثمينة معلقة على زوايا الضريح، وبخلاف هذه الأشياء توجد أيضًا آلاف من الأشياء الملونة المعلقة على الحوائط التى زُينت بالخطوط الجميلة لكبار الخطاطين، حتى أن الحقير كتب آية: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨] على لوحة خشبية بالخط الجلى ووضعتها بجوار المحراب.

وفى الناحية الموجود بها رأس البدوى يوجد حجر أسود عليه آثار قدم النبى ﷺ، لا يقع بصندوق الضريح بل خارجه، ويقوم الزوار بمسح وجوههم فيه، ويقولون الشفاعة يا رسول الله، وبالجوانب الأربعة للضريح نوافذ ذات سياج نحاسى تطل على الطريق العام، والمحراب صغير، بناءُه غاية فى الجمال، مرصع بالأحجار الكريمة التى تشبه الصدف، وزينت القبة بالزجاج، وبالتكية دواليب محفوظ بها كتاب الله والأوانى مرصعة بالجواهر، وسجلات للأوقاف، ويطل باب التكية على فناء الجامع إلى ناحية الشرق وضلفتى الباب مزينتان بالحلقات والنقوش الفضية، وكلها من آثار أصحاب الخير وإطار الباب من على الجوانب الأربعة مزين بقطع القيشانى المنقوش، وعلى الإطار العلوى له لوحة مرمرية دائرية مذهبة منقوش عليها بالخط الجلى:

(أمر بإنشاء هذا المقام المبارك مولانا السلطان قايتباى عز نصره).

ومن يصلِّ ركعتين فى محراب هذا الضريح يحفظ من كل بلاء الدهر، ولا يستطيع أى خصيم أن يخاصمه أو يعاديه، ولا يرى الفقر وإذا ما التجأ صاحب دين أو لص أو صاحب دم بهذا الضريح فإن الحاكم لا يستطيع أن يتعرض له طالما أنه بداخل الضريح أما إذا بقى هذا الشخص بالداخل أربعين يوم وليلة بلا طعام أو شراب فإنه سيموت بالطبع، وإذا كان الملتجئ إلى الضريح يلوذ به وهو مظلوم فإنه سيجد الخلاص بإذن الله، حتى أنه قد تداين أحد الكاشفين من المال الميرى، وفر هذا الكاشف من جراء هذا الدين والتجأ إلى تكية السيد البدوى واعتكف بها، وقد أرسل الباشا الأغوات مرتين للقبض عليه ولكنهم لم يستطيعوا، وفى أحد الأيام أرسل الباشا أحد الأغوات المتفرقة ويدعى على أغا وكان رجلاً متجبراً، فأتى على أغا إلى ضريح البدوى وشتم الشيخ سلامة والشيخ أحمد وأخرج الفرمان وضرب به وجوههم وقال: لتخرجا الكاشف من

الضريح وإلا سوف أقبض عليكما وأرسلكما للباشا، فرد المشايخ: نحن؟ حاشا لله لن نستطيع إخراجه، ها هى المفاتيح أمامك خذها وافتح الباب واقبض عليه إن استطعت، فقال على أغا: أنتما اللذان ستفتحان الباب وتسلمانى الكاشف وإلا سأقوم بكسر الباب وإخراجه، وقد نصح الحقير على أغا بعدم كسر الباب قائلاً له: خذ المفاتيح وأخرج أنت الكاشف، وبعد ساعة كاملة من العناء لم يستطع على أغا أن يفتح الباب، فغضب وأمر خدامه بأن يخلعوا الباب وأخرجوا الكاشف من الداخل، فقال كل من فى المجلس حسبى الله وتحيروا لهذا الصنيع، حتى أنا تحيرت جداً، أما الشيخ سلامة فقال: اصبروا قليلاً وذهب إلى بيته، وركب الأغا المذكور وخدامه الخيول وذهبوا وعندما خرجوا من المدينة وهم بقرية طوخ النصارى أخذ على أغا يتأوه من شدة الألم ومات وذهب به خدامه إلى مدينة طنطا وهو ميت ودفن هناك، وقد أخبر الحقير الباشا بهذه الحادثة فعفى الباشا عن الكاشف، وتصدق بعشرة آلاف قطعة من المال على المريدين الموجودين بالتكية.

وتوجد حجرة خارج الناحية اليسرى للتكية، بها صندوق خشبى محفوظ به خرقة البدوى وعمامته الخضراء يحفظها بعض المريدين، ويقام لهذه الحجرة احتفال مرة فى العام، تكون يوم الجمعة الأخير المتمم لمولد البدوى، حيث يقوم الشيخ عبد العال وهو ابن الشيخ البدوى بارتداء الخرقة والعمامة فى حضور المشايخ وآلاف المريدين وتدق الطبول والنفير والدفوف والنقارات ويخرج موكب عظيم به مئات الآلاف من الرايات ويكون كل جنود كاشف الغربية وكاشف المنوفية فى هذا الموكب ويدخل الشيخ عبد العال مدينة طنطا مع الموكب ممتطيًا جواده ويتجول بالمدينة، ثم يصلى الجمعة فى جامع الشيخ المدبولى بالمدينة ثم يذهب الشيخ مع الموكب إلى التكية حيث يحفظ الخرقة والعمامة ف الغرفة ثم يتفرق كل الزوار حيث يذهب كُلٌّ إلى بلده.

أوصاف الخرقة الشريفة والشال

الخرقة من القماش الأحمر ولكنها ممزقة إلى قطع صغيرة، أما الدستار فهو شال من صوف الإبل وقد تمزق بمرور الزمن وتم ترقيعه حتى لا يُبلى، ولا يستطيع أى أحد أن

يرتديه سوى أبناء المشايخ، والخرقة تفوح منها رائحة للعنبر الخام، توضع الخرقة بعد نهاية المولد فى مكانها وسط تكبير العاشقين المشتاقين ثم يذهبون.

عاش السيد أحمد البدوى فى عهد ( )[1] مدة عمره ( )[2] سنة ووفاته سنة ( )[3] قُدّس سره العزيز، والحمد لله أنه قد تسنى للحقير زيارته وصلى عنده الصلوات الخمسة وقد ختم الحقير القرآن ثلاث مرات فى خمسة عشر يومًا بلياليها ووهب ثوابها للبدوى والحمد لله على ذلك.

أوصاف ضريح الشيخ عبد العال

يقع ضريح الشيخ عبد العال بجانب باب القبلة الرئيسى للجامع بمحاذاة ضريح السيد البدوى، ولا يوجد أحد بالضريح غيره، ويرقد الشيخ عبد العال تحت صندوق من خشب السرو مغطى بالمخمل الأحمر، وعلى الصندوق سياج خشبى مصبع الشكل، والضريح من الداخل غير مزين بدرجة كبيرة.

ظل الشيخ عبد العال خليفة للبدوى أربعين سنة فى حياته وأربعين سنة بعد مماته، وكان صاحب سجادة، وله ما يقرب من مائة وسبعين ألف مريد، عاش مائة وعشرين سنة، وهو الذى عمّر مدينة طنطا، حيث كانت له قوة خارقة، قُدّس سره العزيز، وهو من مريدى الشيخ أحمد البدوى ولم يكن له نصيب من العلم الظاهر بل كان له نصيب من علوم الباطن وارتحل عن الدنيا إلى الآخرة مجردًا نظيفًا، وكان فى حياته بمثابة ابن البدوى، حيث فوض له البدوى كل الأمور، وأبناءُه هم أصحاب السجادة الآن وكل الأوقاف تحت حكمهم، إلا أن نظارتها منذ عهد السلطان قايتباى فى عهدة ولاة مصر وعندما يحل واليًا جديدًا يقوم باستدعاء هؤلاء المشايخ ويحاسبهم عن تلك الأوقاف، حقًا إنها أوقاف عظيمة بها أموال كثيرة حيث تأتيها النذور والصدقات من كل خلفاء ديار المسلمين وغير المسلمين، ويطل باب ضريح الشيخ عبد العال على فناء الجامع أو على قبلته، على عتبته العليا لوحة مربعة كتب عليها بالخط الأبيض آية: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] وبجوار الضريح مرقد خمسة من أبناء الشيخ عبد العال لم نعلم أسماءهم، قُدّس سره العزيز.

(١ : ٣) بياض فى الأصل.

فى بيان أولياء الله المدفونين بمدينة طنطا

وهم على طريقة البدوى

أولاً: بيان الموجودين خارج المدينة:

الشيخ نور الدين والشيخ عبد المجيد شمس الدين والشيخ حسن والشيخ عبد الكريم.

ثانيًا: بيان الموجودين داخل المدينة:

الشيخ سالم والشيخ عبد العزيز والشيخ سعد والشيخ السيد على البربرى والشيخ ركيل والشيخ السيد عبد الحق والشيخ السيد ذو النون والشيخ السيد عبد الله.

وبخلاف هؤلاء توجد العديد من الأضرحة التى قمنا بزيارتها ولكنها لمشايخ غير معروفين، ولكل شيخ منهم ضريح، رحمة الله عليهم أجمعين.

وبمدينة طنطا أيضًا جامع الشيخ إبراهيم المدبولى، وقد كان هذا الجامع قديمًا الجامع القديم بالمدينة، وقد تعبد فيه البدوى فترة طويلة ومقامه به الآن متهدم، وأحمد الله أننى قد أبلغت جانبولاط حسين باشا بذلك، فصرح لى بأن أقوم بمراجعة أوقاف هذا المحل، وقد تم ترميم الجامع من المال الفائض من أموال الأوقاف، وارتدى خليفة البدوى الخرقة الشريفة والشال الخاص بالبدوى وأدى صلاة الجمعة الأخيرة فى مقام البدوى الموجود به، إنه جامع قديم تتوسط فنائه شجرة سدر كبيرة، وقد بُنى هذا الجامع على أربعين عامودًا ولا توجد به زينات كثيرة، ومحرابه ومنبره على الطراز القديم، وللجامع بابان جانبيان، وباب لمقام البدوى ومئذنة منخفضة، وتنتهى الزيارات فى هذا المكان، وبذلك نكون قد انتهينا من أوصاف الجامعين أيضًا.

وبخلاف ذلك يوجد ضريح بين تلك الأضرحة وبه حكمة عجيبة، حيث تمتلئ أرضيته بالرمال، وفى أيام مولد البدوى تتحرك تلك الرمال ويخرج منها عظام بشرية، ويأتى آلاف الأهالى لرؤيتها حتى أن بعض الرجال يأخذون من تلك العظام، بعد ذلك تهب رياح قوية تتحرك على أثرها الرمال مرة أخرى فتختفى العظام تحتها، ويقول البعض إن هذه العظام هى عظام مريدى أحمد البدوى، ويقولون إنها تخرج أيام المولد

وتتحرك والبعض الآخر يقول إن تلك العظام هى عظام الأشخاص الذين كانوا منكرين للبدوى ومنكرين لكرامته ومنكرين للذكر والتوحيد بالدف والطبل، فدعا عليهم البدوى قائلاً بأن لا يرقد لهم جسد فى التراب وبالتالى تلفظهم الأرض فى كل عام، والله أعلم، وقد شاهد الحقير بنفسه هذه العظام فى أيام المولد.

وبميدان الملعب زاوية كبيرة مثل الجامع لا توجد لها مئذنة ولكنها زاوية عامرة للغاية، ولا يوجد بالمدينة مسجد يضاهيها، والزاوية من خيرات المرحوم على بك الجرجاوى حتى أنها تعرف باسم مصطبة على بك، وأمام محراب الزاوية يوجد بركس عظيم قطره دائر ما دار ثلاثمائة خطوة به أحواض لسقى الحيوانات، يشرب منها معظم الحيوانات كما يشرب منها كل الزوار ويجددون منها وضوءهم إنها خيرات عظيمة، وبذلك يكون بالمدينة أربعين محرابًا بهذه الزاوية، منها اثنان فقط جوامع جامعة تقام بهما خطبة الجمعة، وقد ذكرناها آنفًا، وما عدا هذين الجامعين زوايا، وبمدينة طنطا حمام صغير ومدرستين إحداهما مدرسة السيد البدوى وبها طلاب كثيرون بها ما يزيد على ألف شخص أعمى من حَفَظة كتاب الله يختمون القرآن كل سبع أو ثمانى ساعات، وبجامع البدوى عمارة تقدم الطعام مرتين فى اليوم للمريدين والفقراء وعابرى السبيل، حيث تقدم القمح مع حساء العدس وقطعة خبز وأئمة ومشايخ وخطباء الجامع ثمانمائة شخص يأخذون جرايتهم ورواتبهم من أوقاف البدوى كما يتم طهو ثلاثة أرادب قمح وأردب عدس وتذبح بقرة وخمس نعاج يوميًا فى عمارة البدوى وتقدم للفقراء والمريدين والزوار خلال أيام المولد، وفى الأيام العادية يُطهى المقدار الكافى فقط ويقدم كله للفقراء والمريدين.

وبالمدينة سبعة مكاتب للصبيان وثلاثة أسبلة، وماء سبيل البدوى مثل ماء الحياة، وكل الحوانيت بالمدينة ثلاثمائة حانوت ولكن فى أيام المولد تزيد على آلاف حانوت لكثرة الخيام الصغيرة والكبيرة التى تنصب فى المدينة، ولا يوجد بالمدينة محلات أقمشة، إلا أن بها سبع وكالات بها بضائع لتجار يفدون من اليمن والهند والسند والعجم والروم والعرب، والبضائع فى تلك الوكالات تباع بلا قيمة لا سيما وأن بها كل البضائع،

وبالمدينة سبع مقاهٍ تعج بكثير من المداحين والمطربين والقواسين، ومدينة طنطا ليست وقفًا للسيد أحمد البدوى بل هى التزام للمتزمين، أما وقف البدوى فهو عبارة عن حصص من بعض القرى والبلدان الواقعة شمال طنطا مثل قرية قحافة وكفر النور وبها أفدنة وأرزاق بلا حساب، كما أنه لو توفى شخص ولم يكن له ولد فإن كل ثروته تؤول إلى وقف البدوى.

مناقب البدوى

عندما كان جان بولاط حسين باشا واليًا على مصر عام ١٠٨٣هـ كانت هناك طائفة تسمى أبناء العوار أشقياء قاطعون للطريق يقوم كل خمسمائة أو ستمائة خيال ملعون منهم بالنصب والسلب للقرى والقصبات المجاورة لطنطا، وذات يوم هجموا على قرية من أوقاف البدوى وهى قرية قحافة وأخذوا منها الإبل والبقر والغنم وقد علم حسين باشا بذلك وتأثر كثيراً، وعلى الفور أخرج تجريدة مكونة من ألف رجل من الفرقة السابعة وعين عليهم قوجه مصطفى أغا من أمراء الشراكسة، هجم قوجه مصطفى باشا بقواته فجأة ليلاً على ابن العوار وتحاربت الطائفتان ولم يجد ابن العوار مجالاً فتحول كَرّه إلى فَرّ، والتجأ إلى تكية أحمد البدوى وقال أغثنا يا بدوى وتعقبهم الجند وحاصروا قصبة أحمد البدوى وتحصن ابن العوار فى التكية يومًا وليلة وكأنه متحصن فى قلعة، وكان يصعد إلى مئذنة المسجد ويطلق النيران عل الجند، وكان اللصوص الموجودون معه ينادون من داخل التكية عل الجند «يا بدوى يا بدوى» فى تهكم وقد هجم أفراد التجريدة من كل نواحى القصبة بشجاعة فائقة، وفى تلك الأثناء فتحت أبواب الجامع والتكية وخرج العلماء والمجاورون وقالوا لقد اختفى الأشقياء وكانت كل أمتعتهم وخيولهم موجودة، أما الأشقياء فقد اختفوا وهم عارون فقال الجند ربما تكون تلك حيلة من الأشقياء ودخل الجند المدينة، واغتنموا كل أمتعة اللصوص وثلاثمائة جواد وثلاثمائة سيف ورمح ونبوت بخلاف الملابس.

وفى تلك الأثناء دخل رجل بيت الخلاء ليقضى حاجته وفيما هو بمفرده فى بيت الخلاء سمع صوت صدى أقدام تأتى من مجارى المرحاض، وقف الرجل ونظر فإذا بالأشرار المفسدين قد نزلوا إلى مجارى المراحيض فربط الرجل سروالة وهرول إلى القائد وأخبره فقام القائد بسد فتحة المجارى التى تخرج خارج المدينة ببناء خرسانى وأمر بدفع المياه الموجودة فى الحوض الشافعى إلى المجارى وجعل البقر يدور فى السواقى فامتلأت المجارى بالقاذورات وخشى الملاعين أن يغرقوا فى مياه النجاسة، وعلى الفور أظهر كل شخص منهم رأسه من فتحات المراحيض وعندما خرج الملاعين لم يكن هناك إمكانية للقبض عليهم والإمساك بهم لأنهم كانوا ملوثين بالنجاسة، وتم قتلهم بالسيوف والبلط والنبابيت وهم كالخنازير الملوثين وقتل منهم ثلاثمائة وخمسة أشخاص ثم نظفت الجثث من الروث والنجس وقطعت رءوسهم عن أجسامهم وأرسلت رءوسهم جميعًا إلى ديوان مصر فابتهج الوالى وأنعم على هؤلاء الجند وبذلك طهرت تكية البدوى من هؤلاء الأشرار، وهكذا غرق كل الأشقياء الذين نهبوا قرية قحافة من أوقاف السيد البدوى فى الماء النجس بالمهانة وسحبت رءوسهم وكان هذا من تصرف أحمد البدوى قُدّس سره العزيز.

وبقرية قحافة التى نهبها هؤلاء الأشقياء خليفة للبدوى وهو من أصحاب الكشف والكرامات وله فى كل ديار الإسلام أربعة آلاف خليفة ومئات الألوف من المريدين، وكل مكاسبهم وأرزاقهم من أوقاف البدوى، كما يحصل الفقراء العرب والروم والعجم الأموال من هذا الوقف، حيث يأتون مرة واحدة فى المكان الذى يكون فيه المولد، ويضعون تلك الأشياء التى جمعوها أمام الخليفة، وفى الليلة الأخيرة من المولد يصبح مائتين أو ثلاثمائة خليفة من خلفاء البدوى أصحاب سجادة، ويصل هؤلاء الخلفاء إلى ديارهم معززين مكرمين على دقات الطبول والصيحات والدفوف، ويخرج كل أهالى هذه الديار إلى استقبالهم بالتعظيم والتكريم وفى حالة عدم وجود تكية للبدوى فى تلك الديار الذاهب إليها الخلفاء ويبنى بها تكية عل الفور، حيث يسكن بها هذا الخليفة هذا بالإضافة إلى أنها تطيب خواطرهم كما أنها بركات البدوى.

أوصاف مولد السيد أحمد البدوى بصحراء طنطا

يوجد وادى بين قصبة طنطا ومحلة مرحوم يبعد عن المدينة بمقدار ثلاثة آلاف خطوة وقديمًا كان كل التجار وأهل الحرف يذهبون إلى هذا الوادى قبل قطع النيل بعشرين يومًا، وعندما كانوا يصلون إلى منتصف طريق محلة مرحوم ينصبون الخيام على جانبى الطريق وتنصب أيضًا آلاف الحوانيت والمقاهى، ثم يأتى جميع المشايخ البدوية وينصبون خيامهم بجوار تلك الأسواق الواقعة فى الناحية الشمالية للمدينة، حيث يقوم اثنا عشر خليفة من خلفاء البدوى بنصب خيامهم فى هذا الميدان، ويأتى كل المريدين وينصبون خيامهم على الترتيب المفصل الموجود عند البدوية، يكون الشيخ مصطفى الرومى فى المقدمة وهو من طريقة مرزوق كفافى والبدوية تنتهى عنده، ثم يليه الشيخ الإمبابى، ثم الشيخ الكالناسى ثم الشيخ الشناوى ويمكث مع عشرة آلاف مريد من مريديه، ثم الشيخ أحمد القليوبى ثم الشيخ عثمان ثم الشيخ الغمراوى وخلاصة القول أن كل الخلفاء يمكثون فى أماكنهم، وكل المشايخ الذين يأتون بعد ذلك ينصبون خيامهم فى المكان الذى يجدوه خاليًا، وخلف هؤلاء المشايخ يرابط ألف جندى مسلح من جنود كاشف المنوفية، يقومون بحماية الأسواق والمشايخ فيتجول كل الجنود ليلاً وإذا ما وجدوا أى لص أو قاتل قتلوه على الفور.

ثم بعد ذلك يبدأ مريدو اليمن والهند والحبش والعجم فى المجىء أفواجًا وكأنهم البحر، ويمكثون فى خيامهم فى هذا الوادى المعشوشب بخيامهم وسناجقهم ورواياتهم، وبعد ذلك اعتبارًا من اليوم السادس يأتى كاشف الغربية بفرمان والى مصر مع ألفين من جنود مصر وألف خيال عربى وخمسمائة صبى من حملة النبوت والقواسين على دقات الطبول، رافعين الرايات، ويستعد كاشف المنوفية بجنوده أيضًا لملاقاة كاشف الغربية وتعزف الأقواس، ولا يوجد لكاشف المنوفية خمس طبقات من الموسيقى العسكرية مثل كاشف الغربية، وذلك لأن كاشف الغربية نال رتبة الباشاوية وبمقتضى قانون الظاهر بيبرس يتصدر كاشف الغربية كل الكاشفين ما عدا والى جرجا وذلك لأن مرتبة والى جرجا أعلى منه، ثم يتوقف كاشف المنوفية للسلام على كاشف الغربية ويمر الموكبان بين

خضم كبير من الناس كأنهم البحر، ويمكث الجميع فى خيامهم، وقد مكث الحقير أيضًا مع رفقته مع الموكب وسلم الحقير فرمانات الوزير إبراهيم باشا للكاشف حيث قُرئت فى الديوان وجاء فيها ما يلى: «إلى حسن أغا كاشف الغربية لتكن على بصيرة ويقظة حتى انتهاء مولد السيد أحمد البدوى الموجود بإيالتكم ولتحفظوا كل الزوار والتجار، ولتمنعوا أشقياء العربان من المجيء بالخيول إلى ميدان الملعب وأن تمنعوا أى شغب يقومون به»، فقال الكاشف سمعنا وأطعنا.

كما قدمت رسائل كتخدا الباشا وقرأت على الملأ وجاء فيها أن يقوم الكاشف بالإحسان على أوليا جلبى بِخَيل مُزين وكيس من النقود المصرية، وقد أحسن الكاشف عل الحقير بجواد فضى السرج مذهب الركاب وكيس من المال وخمسة آلاف عملة حالية كما أمر الكاشف بفرش خيمة لنا بجانب خيمته أقمت فيها ثلاثة أيام بلياليها، كما نزلت ضيفًا بمنزل خليفة البدوى لمدة عشر ليال، وبعد أن جاء الكاشفان إلى ميدان المولد ومكثا فيه واستتب الأمن هناك، قام كل التجار والزوار بإخراج أمتعتهم وبضاعتهم ليعرضوها وحينئذ يتم البيع والشراء بشكل لا يمكن التعبير عنه، ويزين الجميع خيامه بآلاف القناديل والسناجق والأعلام بشكل لا يمكن وصفه، وقد كان بهذا الميدان الذى يقام فيه المولد صُفّة للبدوى يتعبد فيها خارج المدينة فى مكان لا يعرفه أحد يُطلق الأهالى عليها مقام السيد البدوى وهى مكان للتعبد وبها صارى اتفاعه ثمانون ذراعًا به خيوط يعلق بها القناديل التى يبلغ عددها أربعين ألف قنديل فتصبح الصفة وكأنها خيمة عظيمة ذات صارٍ مثل خيام الوزراء، وفى بلاد العرب يقولون على تلك القناديل إشارة، وللصفة أربعون خادمًا يشعلون كل ليلة عشرة قناطير من زيت السمسم، وقد وقف لها صاحب الخيرات فى خمسة عشر يومًا بلياليها عشرين ألف پاره، ويضاء الميدان كله بآلاف القناديل الصغيرة والكبيرة، وعندما ذهب المشايخ لحضرة إبراهيم باشا للحصول منه على الإذن بإقامة المولد وذلك فى السنة التى كنا فيها هناك، قال لهم الوزير: أيها المشايخ الكرام لتكونوا على بصيرة فى هذه السنة ولتكن الأفراح والاحتفالات أكثر من العام الماضى، إنه مولد النبى، إنها شعائر الإسلام فقال كل المشايخ على الرأس والعين

يا وزيـر، وعندما شـاع هذا الخبـر على أفواه الـناس اجتـمع أناس كـثيرون من أعـيان وأشراف مصر والشـام وحلب والعرب والعجم لـلاحتفال بمولد البدوى، وكـانت هناك ثلاثة آلاف وسبعمائة خـيمة وأوطاق بخلاف الخيام الصغيرة المصنـوعة من الكليم وهى الخيام الخـاصة بالعـربان، وقد قام أصـحاب الخير بـوضع أسبلـة المياه علـى رأس كل الطرقات لأن المياه فى هذا المـيدان قليلة، ولم تكن الأسبلة تكفـى هذا الكم الهائل من البشر الذى يقدر عـددهم بمئات الآلاف والنيل المبارك يبعد عن هـذا المكان بمقدار ساعة عند مـحلة مرحوم، ويـحيط جند الـكاشفين بهذا الـكم الهائل مـن البشر ليـلاً ونهارًا يقومون بـحراستهم، أما أعـيان مصر فحرسهـم خدامهم، وذلك لأن اللـصوص وأبناء الحرام يكثـرون فى هذا الجمع ويكون موجـودًا فى هذا الميدان كل يوم عشـرة أو خمسة عشر ألف من العربان العرايا برماحهم ويكونون مثل الغابة.

فصل فى بيان اللاعبين وأصحاب المهارات فى مولد البدوى

يقوم مئـات العارفين من الطريقـة البدوية والطريقة الـسعدية بمسك قطع الحـديد التى احمرت من شدة النيران بأيـديهم، ويلعقونها بألسنتهم لتسكـين نار الشوق التى عندهم، ولإظهار معرفتهم، وبعضهم يأكل قطع النار التى احمرت مثل العقيق الأحمر، والحاصل أنه يجـتمع فى ميدان الـبدوى سبعة وسبـعين فرقة من أصـحاب الألعاب كلاعبـى النار ولاعبى الحـبل ولاعبى الـيد ولاعبى خيـال الظل، ولاعبـى الخزف، ولاعبى الـسحر، ولاعبى الـقمار، ولاعبى الحمـار، ولاعبى الطيـور، ولاعبى الديك، ولاعبـى الطاس، ولاعبى القـرد، ولاعبى الكلب، ولاعـبى القدح، ولاعبـى الكبش، ولاعـبى المرآة، ولاعبى الـثعبان، ولاعبى الـعين، ولو دونّا كل مـا يقـوم به كـل لاعب سنكتب كـتابًا مفصلاً، ويكـثر اللصوص والنشالين، ويجـب على كل من يكون هناك أن ينـتبه ويكون على يقـظة دائمًا، فمشـهور عن اللصوص أنهـم يسـرقـون الكحـل مـن العين، أما لصوص مصـر فعندهم من المهـارة ما يجعلهم يـستطيعون سـرقة العين ويبقى الـكحـل مكانه.

ومن العجائب التى رأيناها هناك: أن الثعابين الموجودة مع لاعبى الثعبان كبيرة وضخمة للغاية، تخيف الإنسان، والعجب أن لكل ثعبان منها اسم إذا ما قام صاحبه بالنداء عليه، فإنه يأتيه، وإذا نادى على ثعبان ما باسمه وأخطأ ثعبان آخر وأتى بدلا منه، يعاقبه صاحبه، وقد أتى أحد الدراويش البدويين فى الميدان وأخرج ثعبانًا كبيرًا من جعبته، وعندما كان يناديه باسمه يتحرك، كأنه يفهم الكلام، وعندما يشير إليه بالرقص يرقص، وبينما كان هذا الدرويش يقوم بملاعبة الثعبان أمام الناس، جاء أحد مريدى البدوى، ونظر إلى الثعبان وقبض عليه بيده، ووضعه فى فمه وأكله، وعندما رأى الدرويش صاحب الثعبان هذا الأمر، أخذ يصيح ويقول أيها المسلمون، هل يجوز ذلك؟ لقد علّمت ثعبانى هذا طوال عشر سنوات كاملة حتى أصبح يفهم كل شىء، وأتعيّش منه أنا وأبنائى، فهو يغنينا عن السؤال، واحتكم الاثنان إلى القاضى، فقال الدرويش صاحب الثعبان، يا مولانا لقد ظللت أعلم ثعبانى هذا عشر سنوات، أتعيش منه أنا وأبنائى، ثم جاء هذا الرجل وأكله، فماذا أنا فاعل؟

فقال القاضى للرجل: لماذا أكلت الثعبان؟ فقال: يا مولاى وجدته ثعبانًا سمينًا لطيفًا، وكنت جائعًا.

فقال القاضى للدرويش: كم تريد ثمنًا لثعبانك؟

فقال الرجل: أريد عملة ذهبية.

فدفع الرجل العملة الذهبية، وسار وهو يمسح فمه.

عجيبة أخرى

كان يوجد أيضًا أحد الدراويش التابعين للبدوى يرتدى جبة صوف، يلعب بالديك فى هذا الميدان. كان هذا الديك ذا عرف أحمر على رأسه ودائما كان الديك يجلس على رأس هذا البدوى. وإذا ما جاء شخص وأعطى للديك بارة يقوم الديك بضرب جناحيه ويصيح، ولكن لم أستمع إلى صياحه. ثم يقول له يا فرخ وحد الله فيقول الديك بضرب جناحيه ثلاث مرات ويقول بصوت عال لا إله إلا الله محمد رسول الله. والله أعلم.

كان يقول لا إله بأجزاء الحروف ثم يقوم الديك بالرقص على الأرض ثم يستقر مرة أخرى على رأس البدوى، شىء عجيب وغريب. لذا يقولون على هذا البدوى أنه من أصحاب الكرامات ويجمع هذا الديك يوميًا فى هذا التجمع ما يقرب من ألف پاره.

وغير ذلك توجد العديد والعديد من العجائب والعِبَر. منها:

عبرة أخرى

هى: أحد العارفين بالسحر المقبول وقد شاهدناه ومعه شخص يدعى نصر الدين الطنجاوى من بلاد المغرب، قام هذا الشيخ بدعوى الأعيان والكبار الموجودين بالخيام لمشاهدته فى الميدان، واجتمع أناس كثيرون فكانوا فوق بعضهم البعض من كثرتهم. ثم قام هذا الشخص بوضع يده على صدره ثم قام بدق عصا فى الأرض وأخرج من جعبته عدة أشياء مستديرة تشبه الكرة وكانت حمراء وأخذ يلعب بها، ثم أخرج ثلاث كرات أخرى مختلفة من جعبته وظل يلقيها بيده ويمسكها وأظهر مهارة وغرابة فى لعبه.

ثم قام بدحرجة هذه الأشياء الدائرة أمام الحضور فمنهم من يمسكها ومنهم من ينظر إليها ومنهم من يلقيها بقدمه ثم تجول الساحر فى الميدان وأخذ الكرة فى يده وأخذ يلقيها فى الهواء ويمسكها وكان قد ظهر من حافة الكرة حبل فقام الساحر بإعطاء طرف الحبل إلى أحد المشاهدين وقال له شد الحبل وكلما كان الرجل يشد الحبل يخرج معه حتى تجمع على الأرض أحبال كثيرة، والغريب هنا أنه كيف يخرج هذا الحبل من كرة فى حجم رأس إنسان، إن الحبل الذى كان يخرج منها كان بمقدار حِمل بعير. ثم قام الساحر بربط طرف الحبل فى العصى التى ثبتها فى الأرض وقذف الكرة لأعلى فظلت الكرة معلقة فى الهواء وطرف من هذا الحبل مربوط فى العصى والطرف الآخر فى الكرة المعلقة ثم قام الساحر بلصق يده على الحبل وصاح قائلاً إنزلى أيتها الكرة الحمراء فلم تنزل الكرة، كرر ذلك ولم تنزل الكرة فنادى على بعض الرجال الشجعان وخدامه وقال لهم شدوا الحبل حتى تنزل، وحاولوا جاهدين ولكن الكرة لم تنزل، فقام الرجل بمسك الحبل وسحبه رويدًا رويدًا ولم تنزل، فتعجب كل الموجودين وتحدث الساحر إلى الكرة بكلمات غير مفهومة وقال للحاضرين يا أمة محمد إن الكرة تقول لكم «لقد أظهرت

لكم الكثير، فلو قام كل واحد منكم بمنح الساحر پاره سوف أنزل وسأريكم الكثير والكثير إننا نتمنى من كل واحد منكم عملة واحدة فقام كل الأعيان الكبار بمنح الساحر الأموال حتى جمع عشرة آلاف پارة فقام الساحر بلصق يده على الحبل وهزه وقال أيتها الكرة لقد حصل المراد ليبارك الله فيما أعطانا والآن أنزلى.

ولكن الكرة لم تنزل أيضًا فقال الساحر يا مسلمين إن الكرة لا تنزل لترجوها كلكم فصاح الصغير والكبير إنزلى إنزلى. وعلى الفور اتجهت الكرة يمينًا ويسارًا ثم نزلت على الأرض. فقام الساحر بوضع الكرة والخيط الحرير الرقيق فى جعبته بعد أن أظهر معارف كثيرة. يحتار العقل لكل منها. ولكنى قد أستطيع تفسير هذا بعقلى القاصر على أن تلك الكرة تكون مملوءة من الداخل بالندى وعندما يرى الندى الحرارة يتبخر فى الهواء ويقوم الساحر بإلقاء الكرة فى الهواء عندما يكون الحر شديد، وبعد هذا الوقت من الكلام وتحصيل المال يكون الندى الموجود بالكرة قد تبخر فتنزل الكرة، ولم يحط عقلى بغير هذا وقد قبل عقلى هذا، وعندما كنت فى مدينة ( )[1] الألمانية بعد فتح قلعة ليفار عام ١٠٧٣هـ لعب الساحر بالكرة وأظهر فيها براعة كبرى، كما أظهر هذا الساحر أيضًا معرفته فى ميدان البدوى، ولو أننا حررنا كل ما شاهدناه لجاء فى كتاب كبير.

تتزين كل أركان طنطا فى ذلك اليوم بالألعاب التى تتأرجح فى الهواء، ويركبها الصغير والكبير وذلك لأن يوم مولد البدوى يوم عيد. فهو بمثابة الليالى المباركة، كما يوجد فى أركان الميدان خيام العاشقين الصادقين يذكرون الله على دقات الطبول والدفوف والنقارات وبذلك تكون الاحتفالات فى كل ركن من أركان المدينة وتُطْهَى آلاف القدور من الطعام اللذيذ يأكل منه كل الزوار، ولحكمة الله أنه لو قام شخص بجلب الخمر إلى المولد فإنها تتحول إلى خل بسر السيد البدوى. ولكن توجد المشروبات اللذيذة مثل العرقسوس والتمر هندى والدبس. وفى تلك الأثناء يقوم كل مشايخ الطرق والمريدون بالدق على الطبول والدفوف ويرفعون الأعلام والرايات ويصيحون بذكر الله فيقوم كل المريدين بالذكر وهم يدورون ويسيرون على هذا المنوال

(١) بياض فى الأصل.

حتى يصلوا إلى ضريح أحمد البدوى يذهبون أفواجًا أفواجًا. وتكون الطرق مزدحمة جدًا حتى أن بعض النساء والصبايا يقعون تحت الأقدام ويموتون وأظن أن هذا الزحام لا يوجد بنفس الدرجة فى زيارة مكة والمدينة وأثناء الطواف. ويستمر هذا الزحام لمدة عشرة أيام بلياليها عند زيارة البدوى ويكون جمعًا عظيمًا كيوم الحشر فتتلاصق الأكتاف فيه وتصبح مدينة طنطا عبارة عن حلقة ذكر ما بين كلمة هو والحى القيوم وذكر الله ويصل صدى ذكر الله إلى عنان السماء.

ويقوم الأثرياء من الأعيان الكبار بفرش خيامهم بالسجاد والأبريشم والقطيفة والأطلس والقماش الهندى ويفرشون أيضًا الأرائك والمقاعد المزينة؛ كما يزينون تلك الخيام بالبساط والأسلحة والأوانى القيمة. ويضعون الأعلام والرايات أمام الخيام. ويشعلون آلاف القناديل والمصابيح ويتسامر أهل تلك الخيام ليلاً ونهارًا، ويدعون للسلطان بدوام دولته.

يزين كل المشايخ أيضًا خيامهم بمئات الآلاف من القناديل والأعلام والرايات ويقيمون فيها مشتغلين بالعبادة والذكر. والحاصل أن كل مرغوب موجود فى مولد البدوى. أما العارفون بالله فيفضلون الانزواء عن هذه الكثرة يأنسون بالوحدة بعيدًا عن أى عالم آخر حيث ينظرون إلى الدنيا بعين الإمعان ويجلون قلوبهم ويتطلعون إلى المتعة الدائمة فالدنيا فانية: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] ففى نفس الوقت الذى يكون فيه أهل الظاهر نائمون فى غفلتهم يكون أهل الباطن من العارفين بالله مشتغلون بالتوحيد والتمجيد والذكر فى منتصف الليل ويُتلى المولد الشريف فى آلاف الأماكن ويقوم الذاكرون الشاكرون ذوى الصوت العذب بمدح الرسول ﷺ، فيملأ صدى أصواتهم المكان، فيشمل الرجال من شدة الشوق. ولأن آلاف القناديل والمشاعل تضاء فى تلك الصحارى تجعل الليل هناك نهارًا وتكون بمثابة العلامة فى الصحراء. وينشغل كل شخص بشىء فى تلك الليالى: (نظم)

عندما يتجلى الخلاق إلى عالم الأزل ... يتسلى كل شخص بحاله

فتطلق آلاف الطلقات النارية فى السماء على أشكال وصور كثيرة فتجعل ليل مدينة

طنطا نـهاراً. ويبدأ إطلاق تلك الأعـيرة لمدة ثلاثة أيام بلياليها. حيث ينـفق كل واحد منهم ألفى قرش على تلك الأعيرة وتحترق خيام كثيرة من جرائها وتعد تلك الأعيرة من القوانين القديمة، فقد حدث أن أتى السلطان قايتباى إلى مولد البدوى وأنفق أموالاً كثيرة وأقيمت الاحتفالات الكثيرة لذلك.

وخلاصة الكـلام أن الحقير سياح العـالم أوليا ساح فى الأرض واحدًا وأربـعين سنة تجول فى أراضى ثمانِ عشرة سلطنة ولم يتيسر له مشاهدة هذا إلا فى مصر. وقد شاهد احتفالات كثيرة منها احتفالات قطع النيل المبارك بمصر واحتفالات الجيش الهمايونى فى إستانبول واحتفالات الباشا القبطان فى سراى بورنو والاحتفالات عند فتح القلاع ومولد الأمراء وعودة السلـطان من الغزو. واحتفالات شـهر رجب وشعبان احتفـالات مصنع الورق فى إستانبول واحتفالات الفيضان واحتفالات أق بابا واحتفالات مصنع البارود فى إيالة بـودين واحتفالات قونـيه واحتفالات ملاطـية ومسيرة مدينـة البصان فى بـودستان واحتفالات حدائق صوادق بـكفة واحتفالات بندر حسن بالقـرب من العراق واحتفالات كيلانى ببلاد العجم واحتفالات مشهد الإمـام علىّ ويوم عاشوراء فى تبريز والتجمع فى يوم قتـل الحسين واحتفالات سـليمان بك فـى بغداد، يسر الله لـلحقير رؤية كـل تلك الاحتفالات والتجمعـات ولكنها كلها بمثابة الجزء من احتفـال البدوى بل إنها لا تساوى احتفال يوم أو ليلة من احتفال البدوى.

ويأتى عـباد الله من بلاد العـرب والعجم والهـند والسند تـاركين أموالهم وأبـناءهم قائلين: يـا بدوى ويشدون الرحال إلـيه وينفقون كـثيراً من الأموال ويأتـون إلى البدوى ويمسحون وجوههم بتكيته ويحتفلون به ولو قام شخص وجهه بتكية البدوى بنية خالصة لله فإنه يشفـى من كل الأمراض والآلام واضطراب الأبدان بإذن الله ويكـون ذلك بمثابة الحفظ له من كل الأمراض. وهذا مجرب والتجمـع الكبير الذى يفوق تجمع البدوى هو اجتمـاع الحجاج فى مِنى بـعد نزولهم مـن عرفات، حيث يـكون عددهم سبعـين ألفًا بخلاف الدواب والحيوانات، إنه تجمع كبير لا يُضَـاهَى، وثمة فائدة فى تلك التجمعات الكبـرى لا توجد فيما سـواها زوال الحجاب فيـما بين الله والعبـد، فيتوب العبـد توبة

نصوحًا لله فيعود كما ولدته أمه. والحديث الشريف دليل على ذلك: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[1] أى أن كل من يستأنس بربه فى هذا التجمع فى مكة والمدينة أو حتى عند البدوى فيجد ربه ويسأله التوبة يتوب عليه.

وقد قيل أن القطب الغوث يحضر كل عام فى مولد البدوى وقد شوهد عدة مرات.

وفى اليوم الثامن من مولد البدوى ينادى المنادون بين كل الزوار بأن مولد الشيخ محمد بن زين يوم الجمعة فى مدينة النهارية. وعندما يسمع الزوار هذا النداء يقوم بعض الزوار والتجار بفك خيامهم ويرحلون إلى مدينة النهارية. وفى تلك الأيام يتم بيع ألف حمل جمل من الحمص فى سوق المولد كما يباع آلاف القناطير من الحلوى وهذا ليس مبالغة وذلك لأنه قد جرت العادة أن يأخذ كل الزوار الحمص لديارهم من مولد السيد البدوى تبركًا، والحمص لذيذ للغاية وليس خاص ببلد معينة.

وفى اليوم التالى وهو يوم الجمعة يقوم الكاشفون والجند بالتجمع عند خيمة الكاشف وتقام لهم مائدة عظيمة يتناولون منها جميعًا ويُمنح كل جندى من الجنود الچورباجيه الموجودون فى محافظة الغربية جوادًا أو ناقة وذلك لأن كل شخص منهم خدم ستة أشهر كاملة ثم يعودون إلى بلدانهم. ثم بعد ذلك تقام مائدة كاشف المنوفية، ويمنح كل جندى من الچورباجيه أيضًا جوادًا وناقة وحجة شرعية بأدائهم الخدمة ثم يعودون إلى ديارهم. بعد ذلك يذهب كاشف الغربية والمنوفية مع جنودهم إلى ضريح البدوى، ويفتحون حجرة الخرقة ويقوم الكاشفان بإلباس خرقة وعمامة البدوى لخليفته ويسيرون به فى موكب عظيم من داخل المدينة إلى جامع المدبولى ويؤدون صلاة الجمعة هناك وعندما يهم الخليفة بالرجوع إلى الضريح يخرج كل الزوار لاستقباله ورؤيته. ويسير الخليفة بينهم حتى يصل إلى الضريح ويعيد الخرقة والعمامة مكانها. ويتسلم الحجة الشرعية التى تفيد أدائهما الخدمة أيضًا، ويقومان بزيارة الوداع ويتجهان إلى مصر، وبذلك يكون قد انتهى مولد البدوى، وفى هذا إعلان مولد البدوى ومن ثم تنتهى

(١) رواه الطبرانى بإسناد رجاله رجال الصحيح من حديث ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ.
انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ١٠/ ٢٠٠.

مسئولية الكاشفين فى الحماية والحراسة، وتكـون حينئذ فى يد المُسَلَّمين والقائم مقام لذا يبدأ لصوص العربان فى أعمال السرقة.

بعد ذلك يبدأ بقيـة الزوار فى حل خيامهم الكبيرة والصغـيرة وتوضع الأحمال على مئات الآلاف من الجياد والبغال والإبل والحمير، وحيـنئذ تكون ضجة كبيرة فى صحراء طنطـا فالكل يهـم بالرحيل ولا يـبقى فرد واحـد من الزوار هناك ولأن الحـاكم قد أذن للكـاشفين بالـذهاب من هنـاك فإن الزوار والتـجار يخشـون على أنفـسهم من تـسلط العربان، إنه يـوم عظيم الدهشة من شدة الاضـطراب التى تعترى المكـان فى ذلك اليوم ويرحل الجمـيع من هذا الوادى ولا يبـقى به أحد ويتجه هـذا الجمع الغفيـر إلى أماكن متفرقة، كما يرحل خـلفاء البدوى إلى مدينة طنطا لأنهم سيقومون بـإحياء ليلة السبت فى تكية البدوى حيث يكون المولد الشـريف ويقولون أن أرواح كل الأولياء تحضر معهم حينذاك. ويقوم كل المشايخ والمريدين بتلاوة ما يزيد على ألف ختمة شريفة، وفى اليوم التالى يقوم المشايخ والمريدون بزيارة الوداع. ثم يعتزمون العودة إلى منازلهم ثم يقوم كل مشايـخ التكية وخـدامها وخادم الضـريح بغسـل التكية والـضريح بماء الورد ويـقومون بتنظيف كل أحجار الـفناء ويفرشونه بالسجاد الإبريشم. وفى اليـوم التالى يقوم الأهالى بفتح ترعة خليج القرنين الموجودة على أراضى منوف، فيسير ماء النيل المبارك بعظمة الله إلى تلك الأراضـى التى كان بها المـولد فتغرقها المـياه تمامًا لدرجة تجـعل أى شخص لا يستطيع وضع قدمه فيها.

لقد شاهد الحقير آلاف العجائب والغرائب فى مدينة طنطا وقمنا بتوديع الشيخ سلامة والشيخ أحـمد خليفة البـدوى والشيخ جلبى وكل الأئـمة والخطباء والأحباء، وخـتمنا ختمة شـريفة فى تكيـة البدوى وطلبنـا المدد من روحه وزرنا زيارة الـوداع وقبلنا عتـبته وعقدنا النية على المسير لمدينة النهارية.

أولاً خرجنا من مدينة طـنطا وسرنا إلى ناحية الشمال لمسافـة أربعة آلاف وخمسمائة خطوة فى مكان فسيح حتى وصلنا محلة مـرحوم. وسبب تسميتها بهذا الاسم ما يلى:

بعد دخـول هولاكو بغـداد وتدميرها هـرب أحد أمراء العـباسيين إلى مـصر واستقـبله السلطان ( )[1] من سلاطين مـصر وأنعم عليه بـتلك المحلة وكانـت مدينة كبيرة عـامرة. وشاءت حكمة الله أن يموت هذا الأمـير ودُفن بفناء جامعـه هناك ووصل خبر وفاتـه إلى سلطان مصـر. وفى اليوم الثالـث من وفاته كان الأهالـى يؤدون صلاة الجمعة فسمعوا فزعًـا وجزعًا يأتى من قبر الأمير فذهبوا إلى القبر لـيستطلعوا الأمر فإذا بالأمير يـصرخ بالداخل وعلى الـفور فتحوا القبـر فوجدوا الأمير حيًا ووجـدوا حيوانًا ينهش فى كتفه والدماء تسيل منه فقاموا بإخراجه وذهبوا به إلى قصره وعاش بعدها سبع سنوات ثم توفى فـنقلوا نعشه إلى مصر وتم دفـنه بجوار السيدة نفيسـة. ومكتوب على الضريح السلطان المرحوم عز الدين بالله. وقد قام المنجمون بتبشير الأمير وهو فى حياته بأنه سوف يموت ويحيى لمـدة سبع سنوات سيكون فيها خليفة. وقـد أطلقوا على المحلة اسم محـلة المرحوم. ومحـلة المرحوم قصـبة جميلة تـتبع منوف بـجزيرة الغربـية وهى عاصمة كاشـف منوف نظرًا لوقوعهـا فى وسطها ويقيم بـها الجند بصفة مسـتمرة. أما مدينة منوف نـفسها فهى العاصمة القـديمة، وأحيانًا يقيم الجند بمنـوف. ومحلة المرحوم قضاء شريف عبارة عن مائة وخمسين أقچة ويتـبعها سبعون قرية. والمكان الذى يقام فيه مولد البدوى يـتبع محلة المرحوم. وفى أيـام مولد البدوى يذهب حاكم مـحلة المرحوم وقاضيها إلى هناك ويـشرفون على المولد. ويتحصل من ذلك محاصـيل كثيرة. ومحلة المرحوم مدينة مزينة بحدائق النخيل والبسـاتين تقع وسط صحراء فسيحة تبعد عن النيل ساعتين ولكن بحدائقـها خليج متفرع من النيل يمر من أمام مدينـة النهارية، توجد المياه بصفة مستمرة فى هـذا الخليج صيفًا وشتاء. وتبحر به المراكب وينـتهى هذا الخليج عند محلة المرحوم وعند فـيضان النيل تزيد فيه المياه فيصب فى فـرع دمياط. وبمحلة مرحوم ألفا منزل مغطاة بـالكلس وخمس محلات وأربعين محرابًا اثنان منـهما جوامع جامعة: الأول وهو جامـع الخليفة المـرحوم ويطلقـون عليه جامـع بغداد أو جامع المـدرسة وهو مرتفع عن الأرض بمقدار ست درجات سُلمية حجريـة وللجامع بابان ومئذنة رشيقة لها ثلاث طوابـق والجامع بدون فنـاء أو أعمدة، ولأنه جـامع صغير لا تـوجد زخارف أو

(١) بياض فى الأصل.

زينات إلا تلك الزينات البنفسجية المذهبة على أركانه. والجامع الثانى موجود بالسوق وهو الجامع الكبير ويتسع لأعداد كبيرة من المصلين يبلغ طوله وعرضه مائة وعشرين قدمًا للطول وأخرى للعرض وبه قبوات تستقر على ثمانية وثلاثين عمودًا من المرمر. وسقفه بسيط ولا توجد به أى نقوش. ومنبره من الخشب وعلى الحائط الموجود فى الناحية اليسرى للمحراب يوجد هذا النظم لأحمد الخطيب الشافعى:

(سبع إن ترم تحريراً عن قدره فاسأل به خبيراً)

وهذان الجامعان هما جوامع الخطبة فى المدينة فقط والباقى زوايا. وبالمدينة سبع وكالات وثمان مكاتب للصبيان وحمام صغير ببدروم سراى الكاشف. وقد كان هذا الحمام قديمًا حمام قصر الأمير البغدادى ولكنه حاليًا حمام قصر الكاشف وبه نقوش مذهبة غاية فى الجمال، من صنع نقاش أعجمى. وبالمدينة مائتا حانوت وهى حوانيت على جانبى الطريق الرئيسى الذاهب من قصر الكاشف حتى الجامع الكبير، ويبلغ طول هذا الطريق ألف خطوة. والمياه كلها من الآبار ولكن لقربها من النيل يقوم بعض الأشخاص بجلب المياه من النيل إليها على الإبل وتوجد سُبل فى سبعة أماكن من المدينة. وأهلها محبوبون. وطقسها لطيف. وكل أجداد الأهالى بها من بغداد وبعض كتب تاريخ تسجلها على أنها محلة بغداد ومنوف، وبالمدينة حجر غريب ضخم يقع خلف سراى الكاشف ويقف هذا الحجر فى وسط حوض عظيم، ولا تستطيع مائتا جاموسة سحبه إنه حجر طاحونة دائرية، يوجد بوسطه ثقب كانت هذه الطاحونة قديمًا هى مصنع السكر الخاص بالأمير المرحوم. وطواحين السكر حاليًا لا تدار بالحجر بل تدار بعجلات الوابور وكلما تدور العجلة يسيل شربات السكر من فم الوابور ويأخذون هذا السكر ويغلونه ويحولونه إلى سكر بعمل كثير يحتاج إلى تفصيل.

مزار محلة المرحوم

أولاً ضريح الشيخ عبد الوهاب الجوهرى خليفة البدوى. وهو مدفون فى ضريح عالٍ يقع خارج المدينة فى جهتها الشرقية. وضريحه مرتفع عن الأرض بمقدار ست درجات سلميه حجرية، وهو تكية به روحانية. بجانبه زاوية، وكراماته مسجلة بالتفصيل فى مناقب الشعراوى، ولا داعى هنا لذكرها. وعلى مقربة منه يوجد ضريح الشيخ عبد

الله الواسطى وهو من بغداد. وعلى مقربة من مصطبة الجريد الواقعة أمام قصر الكاشف يوجد ضريح مدفون به شيخان هما الشيخ على العجمى والشيخ منصور الأندلسى وهذان الشيخان هما اللذان بشّرا الأمير بأنه سيموت ثم يحيى بعد سبعة أيام ثم يعيش سبع سنوات، وقد قام الأمير ببناء ضريح لهما، وقد تهدم الضريح، ولم يَبْقَ منه حاليًا إلا بعض أطلاله فقط، وهو مزار للعام والخاص، قُدّست أرواحهم.

وفى الجهة الجنوبية المقابلة لضريح الشيخ عبد الوهاب الجوهرى يوجد ضريح أبيض مدفون به السيد عثمان الصيادى، وبالمدينة قبر الإخوة الثلاثة، وهم الشيخ علامة والشيخ ديان والشيخ عمر ولكل منهم ضريح بالقرب من بعضهم البعض، والمشهور عن تلك المحلة أن اللصوص لا يدخلونها، فأبوابها دائمًا مفتوحة، والعجيب فى ذلك أنه لو تجرأ لص على المرور من أمام تلك الأضرحة، فإن قدميه لا تتحرك، ويقع ضريح الشيخ السيد محمد العجمى بزاوية أبو حمزة بالسوق، وقد هذا الشيخ مع ابنه من بلاد العجم، وله مناقب كثيرة مدونة فى مناقب الأولياء، وبالمدينة أيضًا ضريح الشيخ سيدى يوسف وهو من طائفة الجند، وبالسوق ضريح الشيخ السيد عبد الرحمن، وبالقرب من الجامع الكبير يقع ضريح الشيخ السيد عبد الرحمن السويدى، وهو سلطان عظيم وفد مع ابنه أيضًا من كردستان من بلدة سويد، وقرأنا الفاتحة لكل شيخ منهم، وطلبنا المدد من أرواحهم الطاهرة، بعد ذلك حصلنا على البراءة من ميرزا أغا كاشف منوف، ومنحنا خمسة آلاف عملة ذهبية، وخمسة خيالين، ثم سرنا شمالاً من تلك المحلة لمسافة ثلاث آلاف خطوة، فبلغنا قصبة الأبيار، وسبب تسميتها بهذا الاسم، أن تلك المنطقة كانت فى عهد الملكة دلوكة بلا ماء، فقامت الملكة بحفر آلاف من آبار المياه، لذا سميت بمحلة الأبيار، ثم قامت الملكة بتسيير خليج من النيل إلى تلك المحلة، وهى مدينة عامرة، تقع فى أراضى منوف، ولها ملتزم، وقضاء شريف مائة وخمسين أقچة، ولها مائة وخمسين قرية تتبعها، يتحصل منها عشرة أكياس مصرية، وتقع تلك المحلة على ضفاف ترعة النيل، وبها الحدائق والبساتين، وقد أهملت بمرور الأيام، ولكن عندما كان الحقير هناك فى عام ١٠٨٣هـ كان العمران فى أربعين أو خمسين ناحية، عمّرها الله، وبها تسع محلات، وأربعون محرابًا، ثلاثة منها جوامع جامعة، والباقى مساجد صغيرة، تلك الجوامع هى: الجامع الكبير ويقع بالقرافة الكبرى على مقربة من

النيل، فى الجهة الشرقية للمدينة، وجماعته قليلة، وهو جامع كبير طوله وعرضه مائتى خطوة للطول والعرض، وبه ستون عمودًا تستقر عليها القبوات التى تحمل السقف، وسقف الجامع مطلى بالكلس، وللجامع ثلاثة أبواب، ومئذنة ذات ثلاثة طوابق، وعلى يمين المنبر توجد لوحة بيضاء مرمرية مكتوب عليها (رسم أيام السلطان الملك الأشرف خلد الله ملكه)، وعلى يسار المنبر لوحة مرمرية أيضًا مكتوب عليها (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، هذا الجامع إنشاء الفقير إلى الله تعالى وإلى رحمته وغفرانه أبو الحسن بن على بن أحمد الحسينى الحافظ جدد هذا الجامع المبارك العمارت فى شهر شعبان المبارك المكرم سنة تسعين وتسعمائة) وعلى يسار المحراب كتبت عدة آيات من سورة الفتح بالخط الجلى على لوحة مرمرية أيضًا. خلاصة القول أنه جامع يجاب فيه الدعاء.

وبالمدينة جامع صغير آخر بدون فناء هو جامع الشيخ أحمد البجم، وله مئذنة ذات ثلاثة طوابق، لا يوجد مثلها فى المدينة، وقد كتب على منبره ما يلى: (جدد هذا المنبر المبارك قطب الأقطاب أحمد البجم فى ذى القعدة سنة ١٠٣٢)، وبالسوق جامع يسمى جامع الزاوية، كان هذا الجامع قديمًا عبارة عن زاوية، وقد حولوه إلى جامع نظرًا لكثرة جماعته، وما عدا تلك الجوامع الثلاثة فمساجد، وبالمدينة مدرستين، وثلاث تكايا؛ هى تكية الشيخ أحمد البجم، وهو مدفون بفنائها، وبها غرف للمريدين، ولها أوقاف عظيمة، والشيخ أحمد البجم من صلحاء الأمة وفد من بغداد إلى هذه المحلة، وبالمدينة ثلاثة أسبلة، وحمام معطل، ومائتى حانوت والطرق الرئيسية لتلك المدينة مرسومة على هيئة لوحة الشطرنج، وهى طرق ضيقة، ولوقوع المدينة على ضفاف ترعة النيل فإن طقسها لطيف، وتشتهر المدينة بشجر الجميز، وزيت البزر، حيث توجد أشجار الجميز على ضفاف النيل، ترعى تحت كل شجرة منها ألف نعجة، ومن الأشياء المشهورة بالمدينة أيضًا الكتان والليمون والأُتْرُجّ، ويقيم أصحاب تلك المدينة على الجورباجى وطويل الجورباجى ونقيب الأشراف الموائد للفقراء، زادهم الله تعالى.

فى بيان أضرحة تلك المدينة

أولاً الواقعة داخل المدينة؛ ضريح الشيخ أحمد البجم وهو مدفون داخل جامعه، وهو سلطان عظيم، ظهرت له كرامات كثيرة، وعندما كان الشيخ السيد على بك واليًا على مصر، رأى كرامات كثيرة لأحمد البجم، فترك العرش والإمارة واستلم الطبل والطوغ من أحمد البجم وأصبح خليفة للمشيخة من بعده، وأنشأ هذا الجامع بالمال الحلال الزلال، وهو مدفون بجوار حضرة أحمد البجم، كان عاشقًا لله عظيمًا.

وقبر الشيخان رضوان وسيدى يوسف وهما من مماليك السيد على بك، أصبحوا مشايخ بعد تحريرهم من الرق، وقد ظهرت لهم كرامات كثيرة وكانوا أئمة للطريق وأضرحتهم بالقرب من قبر أحمد البجم، وبالجامع الكبير أضرحة كلا من الشيخ السيد أحمد العريان والشيخ السيد أبو الفتوح والشيخ على برجانى والشيخ السيد خليفة والشيخ السيد أحمد الحسينى رحمة الله عليهم أجمعين، وقد تجولنا فى تلك المدينة، ثم ودعنا كل الأحباء، وسرنا فى صحراء مستوية حتى وصلنا إلى المدينة القديمة مدينة نهاريّة.

أوصاف مدينة نهّارية

كانت لمصر ملكة تدعى دلوكه، حكمت مصر قبل عشرين عامًا من فرعون موسى، أسست دلوكة هذه المدينة لروح والدها الملك زيباك ووقفتها له، وأسمتها مدينة زيباك، بعد ذلك تم فتح القُدس الشريف فى خلافة عمر، وجاء عشرون ألفًا من الصحابة الكرام إلى مدينة زيباك وحاصروها عشرين يومًا، ولكنهم هُزموا بأمر الله وقتل منهم سبعة آلاف شخص، بعد ذلك أرسل عمر بن الخطاب عمرو بن العاص لفتح مصر والإسكندرية وزيباك، وقدم عمرو بن العاص مع ثمانية آلاف جندى لفتح زيباك، وحاصر الجند المدينة وبعد سبعة أيام فتحها جند الإسلام، وقتلوا عشرين ألفًا من الكفار انتقامًا لروح الشهداء الذين قتلوا قبل ذلك، ولأن الدماء كانت تجرى مثل النهر أطلق على المدينة اسم نهاريّة.

وفى رواية أخرى: أن يوم فتحها كان يوافق يوم النحر بعيد الأضحى فأطلقوا عليها نحراريّة، ونهاريّة ينطق غلط من لفظ نحرارية.

وفى رواية ثالثة: أن الحاكم بأمر الله أحد خلفاء بنى العباس تجول بمدن مصر كلها حتى وصل إلى مدينة زيباك، وأصدر فرمانًا بأن يكون الليل نهارًا والنهار ليلاً، وأنه لو خرج شخص من داره بالنهار سوف يشق بطنه، وامتثل كل أهل مصر لذلك امتثالاً لمعنى حديث شريف مفاده: «وجوب طاعة ولى الأمر أو من ينوب عنه من الأمراء ولو كان عبدًا حبشيًا مجدعًا»[1] فكان الأهالى لا يخرجون من منازلهم بالنهار، وعندما يحل المساء يكون بمثابة الصباح لهم، يخرج الجميع ويوقدون الفوانيس والقناديل ويبيعون ويشترون على أضوائها، وظل هذا الحال عدة أيام فى مدينة زيباك، لهذا أُطلق عليها نهاريّة، وهى كشوفية فى أراضى المنوفية تتبع كاشف منوف، وتُخرج سنويًا أربعين كيسًا من المال وقضاءها مائة وخمسون أقچه وبها ( )[2] قرية يخرج منها سنويًا ثلاثة أكياس، كان قضاءها ذا درجة عالية بين القضاء، حيث كانت مدينة عظيمة فى صحراء مستوية على ضفاف إحدى الترع التى انفصلت عن النيل المبارك، وتوجد حاليًا آثار لآلاف المبانى التى كانت موجودة بها، إلا أن المدينة هجرت بمرور الأيام حتى هجرها كل الأهالى وانتقلوا إلى مدينة الأبيار، لذا عُمرت مدينة الأبيار ولحق الخراب بمدينة النهارية منذ خمسين عامًا تقريبًا، وانهارت مدارسها وجوامعها وحدائقها، ولم يتبقى بالمدينة سوى سبعمائة منزل أسقفها مغطاة بالتراب، وتبدو المدينة وكأنها كبيرة إلا

(١) أخرجه مسلم من طرق عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ أحدها فى كتاب الصلاة، باب كراهية تأخير الصلاة عن وقتها المختار، حديث رقم (١٤٤٠). وباقى طرقه فى كتاب المغازى حديث رقم (٤٦٧٣ ـ ٤٦٧٥)، باب وجود طاعة الأمراء فى غير معصية ولفظه: «أوصانى خليلى (يعنى النبى ﷺ) أن أسمع وأطيع وإن كان عبدًا حَبَشِيًا مجدع الأطراف». ورواه من حديث أم الحصين حديث (٤٦٧٦ ـ ٤٦٨٠).
انظر: صحيح مسلم بشرح النووى (٦/ ٢٦١ ـ ٢٦٣) ط. دار الغد العربى.

(٢) بياض فى الأصل.

أنها خربة، وبها أطلال كثيرة، ويوجد بها حاليًا تسعة محلات وأربعون محرابًا منها ثلاثة عشر مسجدًا جامعًا العديد منها معطل، فقد تعطلت بسبب ضمها للأوقاف الأميرية على يد الكاشفين، وسنذكر الآن الجوامع العامرة بها، أولاً: الجامع الكبير فى الجهة الشرقية للمدينة ويبلغ طوله مائة خطوة وعرضه سبعين خطوة وبناحية المحراب اثنان وثلاثون عمودًا مرمريًا وحول الصحن اثنان وخمسون عمودًا تحمل السقف، وهو سقف خال من الزينة، وسطح الجامع مغطى بالكلس، وبفنائه شجرتان من شجر السدر، وبوسط الفناء سبيل مياه، وفى الزاوية اليمنى للفناء المئذنة وهى من أربعة طوابق، وللجامع سبعة أبواب، ويتم النزول إلى الجامع من الباب الموجود فى الناحية اليمنى بواسطة سلم حجرى من سبع درجات، أما بقية الأبواب الأخرى فسلمها خمس درجات فقط، ومنبر الجامع من الخشب القديم، وعلى الحائط الموجود يسار المحراب لوحة مربعة مرمرية مكتوب عليها بالخط الجلى: (أمر ببناء هذا الجامع الشريف أبا بكر بن عبد الله العساكر المنصورة أعز الله أنصاره سنة سبع وستمائة) وبين المنبر والمحراب لوحة مربعة عليها كتابات لم نستطع قراءتها، ولكن عليها تاريخ سنة ثمانمائة وعلى الإطار العلوى للمنبر كتب ما يلى:

(أمر بتجديد هذا المنبر المبارك مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى فى شهر ذى القعدة سنة خمس وثمانين وستمائة).

وفى الناحية الشرقية للفناء ميقات شمسى على القبو فى غاية الجمال لا يستطيع أساتذة علم النجوم مثل بهرام وكوان وفيثاغورث وعلى قوشجى صنع ميقات مثله، إنه ميقات مشهور فى ديار مصر كلها، وهو مثل ربع الدائرة القطبية، محرر به القطر والميل، وقد كتب فوق هذا الميقات آية: ﴿ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ [الفرقان: ٤٥]، خلاصة الكلام إنه ميقات فى مرتبة السحر المبين، إن هذا الجامع جامع أنور يجاب فيه الدعاء.

وبالقرب من هذا الجامع جامع السيد ناصر الدين أبو العمايم، وجامع العجمى ويقع داخل السوق وهو جامع صغير وجامع الحنفى وهو جامع ذو مئذنة، وجامع سيد أحمد

السواح على ضفاف النيل ومئذنته فى وسط الفناء، وجامع الحاج منصور المغربى وهو جامع صغير، وما عدا تلك الجوامع مساجد، ولكن زاويتا الست رقية وبلال الحبشى فى غاية العمران، وبالمدينة وكالتان وسبيلان وثلاثة مكاتب للصبيان، وسبع مقاهى وماتتا دكان، وتنتشر مئات الدكاكين فى أيام المولد، وبالمدينة حمامان ولكنهما معطلان أيضًا.

وكل الأعمدة الحجرية الموجودة بالجوامع والمساجد والوكالات وأحجار العتبات من الأحجار تشبه المسلة الموجودة فى «آت ميدانى»[1] فى إستانبول، وكانت بالمدينة بعض العلامات الحجرية، إلا أن الظاهر منها الآن أساسها فقط، وعندما بنت الملكة دلوكة تلك المدينة قام الكهنة بعمل ثلاث مائة وست وستون طلسمًا بالمدينة، وقام الملك سوريد ببناء جسر عظيم على النيل أمام مدينة زياك، ولكنه هدم على يد بخت النصر وتظهر دعاماته عندما تنخفض المياه فى نهر النيل، وهى عشرين دعامة قوية بين كل دعامة وأخرى خمسين ذراعًا مكية[2] وقد تيسر للحقير رؤية تلك الدعامات ذات مرة، وتعبر السفن الذاهبة إلى رشيد من تلك الدعامات بحيطة وحذر، وهذه المدينة القديمة أبنية غريبة وعجيبة، كما تظهر تصاوير عجيبة وغريبة على الأحجار المختلفة على الحوائط، وطرقها على هيئة لوحة الشطرنج لأنها بُنيت على علوم الحكماء فى الزمن القديم، ولوقوع المدينة على نهر النيل فإن هواءها لطيف للغاية وبها قرى عامرة.

وحول المدينة سبعة آلاف فدان يتم زرعها، ونظرًا لهجرة الأهالى للمدينة فإن النسبة انخفضت حتى وصلت إلى ألفى فدان فقط يحصل منها خمسون كيسًا مصريًا وبقية الأراضى الأخرى خاوية، ويقام المولد بالمدينة مرة كل عام ويكون عشرة أيام بلياليها، يتجمع به رجال كثيرون، يبيعون ويشترون ليلاً نهارًا، حيث يُعمّر كل ركن من أركان

(١) اسم ميدان أمام مسجد السلطان أحمد كان الرومان البيزنطيون يستخدمونه ميدانًا لسباق الخيل، عمره بعد خراب السلطان محمد الفاتح وأصبح ميدانًا لسباق الخيل ومباريات أخرى، وكان الإنكشارية يحتشدون فيه معلنين الثورة. وفى القرن التاسع سُمّى بـ «ميدان السلطان أحمد».

(٢) الذراع المكى ـ ويقال الهاشمية ـ مقياس، طولها ٦٤ سنتيمترًا.

المدينة فى تلك الأيام، وتصطف الحوانيت على الطرقات، وتشتهر النهارية بكتانها الذى يفوق كتان الفيوم، لذا فالقماش هناك رقيق للغاية، ولهم خبز أبيض خاص بهم وعندهم نوعٌ من السمك يسمى شليه، كما توجد مصانع النشادر على ضفاف النيل فى مدينة النهارية، والنشادر التى تصنع هناك نظيفة خالية من الأوساخ والشوائب، ومن العجائب الموجودة بتلك المدينة أيضًا تلك الترعة التى قامت الملكة دلوكه بحفرها من أمام قرية الفرزدق وهى خاصة بنقباء الأشراف، وهى ترعة شقت من النيل تمر من أمام قرية النهارية، والعجيب فى تلك الترعة أنها حفرت بشكل يجعلها تجرى ناحية الجنوب بالرغم من أن النيل المبارك يجرى صوب الشمال حتى يصب فى البحر الأبيض عند رشيد، وتمر تلك الترعة من مدينة النهارية ثم مدينة الأبيار ثم محلة المرحوم وتنتهى فى بلد شيب، وإذا ما فاض النيل فإن المياه تزيد بها وتجرى نحو الجنوب حتى تصب فى نيل دمياط، أما فى الأوقات العادية فتزيد المياه بها وتقل على حسب المد والجزر، ويقولون هناك أن المياه موجودة بها بصفة مستمرة ولا تجف خمسة أو ستة أشهر مثل بقية الترع الأخرى وذلك لأن الملكة دلوكه دفنت طلسمًا أمام النهارية، ويجرى النيل على عكس تياره من تأثير هذا الطلسم، وهى على هذه الحال إلى ما شاء الله.

أوصاف مزار الأولياء بمدينة النهارية

أولاً الموجودون وسط المدينة: ضريح الشيخ محمد بن زين وهو ضريح ذو قبة منخفضة فى أحد أركان فناء جامعه، والضريح من الداخل لا توجد به زينات وزخارف كثيرة، والجامع أيضًا جامع صغير، ولكن المصلين به كثير، وبابه يطل على ناحية الشرق، وله مئذنة بيضاء ذات طابق واحد، وقبة الضريح مكسوة بالكلس الأبيض، ولهذا الشيخ مناقب مشهورة عند العرب والعجم إحدى تلك المناقب ما يلى؛ عندما أراد الشيخ محمد بن زين التوجه لأداء فريضة الحج، قال بعض خلفائه: فى أى يوم ستخرج إلى الحج؟ وكم ناقة تحتاج يا مولانا؟ فقال لهم أنا يمكننى أن أحضر ناقة، أما

أنتم فدبروا حالكم، وفى الصباح جاء أعرابى بناقة بيضاء جميلة إلى الشيخ وأعطاها له وقام الشيخ بتوديع الحضور فى المجلس وبينما كان الشيخ منشغلاً بالذكر بقوله يا حى يا قيوم يا قوى يا متين أخذته الناقة على ظهرها وهرولت به كريح الصبا حتى خرجت من المدينة، فتعجب المريدون من هذه الحال وأسرعوا خلف الناقة يبحثون عنها، وقد وجدوا الشيخ يؤدى صلاة الظهر والناقة باركة بجواره، وبعد الصلاة أرسل كل أحبائه إلى المدينة أما هو فجلس يذكر الله مع سبعة من الرجال، ثم ركب الناقة وعزم على المسير وعندما رأى كل الحجاج هذا تحيروا، حقًا إنه سلطان صاحب قوة خارقة.

وقد قطع هذا الشيخ المراحل وطوى المنازل حتى وصل المدينة المنورة فى أربعين يومًا، وسارت به الناقة إلى باب السلام، فقام الشيخ بتقبيل ضريح حضرة صاحب الرسالة ومسح وجهه بالروضة المطهرة، ثم قال الرجل وهو يقف أمام روضة النبى ﷺ: (يا رسول الله لقد أحضرت لك جملاً هدية وأتمنى أن تقبلها منى) وعلى الفور ظهر صدى من داخل القبر الشريف يقول: (يا محمد بن زين لقد قبلها الله أيضًا وشفاعتى لك، يا ابن زين إن ناقتك التى أحضرتها قد ماتت الآن لا تطعمها ولا تسقيها امتطيها واذهب إلى مكة وعرفات والمروة وبعد أربعين يوم سوف تذهب بك إلى النهارية لتدفنها هناك)، وعندما استمع ابن زين لهذا الصدى من القبر الشريف حمد الله وقال لقد قُبِلت هديتى، وعندما خرج وجد الدراويش الموجودين بجوار الصفة يصرخون ماتت الناقة، فقال الشيخ محمد أيتها الناقة لقد سرت بى وأنت حية وسوف تسيرين بى وأنت ميتة بإذن الله، فركب الناقة الميتة قائلاً باسم الله وقال: (يا جمل قم بإذن الله) فنهض الجمل على قدميه وسار وهو ميت وذهب فى عشرة أيام إلى مكة وعرفات وأدى الشيخ الحج، وقطع المنازل وطوى المراحل، وفى اليوم الأربعين وصل إلى مدينة النهارية وهناك سكنت الناقة عن الحركة، فقام الشيخ بتغسيلها بيده المباركة ودفنها ثم أُنشئت بعد ذلك قُبة عليها أُطلق عليها قبة ناقة الله ويزورها كثير من الناس، وقد شوهد ذلك كثير وشهد الذين ذهبوا إلى هناك بأنهم يسمعون ضجيج الإبل يخرج من القبر، وفى تلك السنة توفى الشيخ ليحشر تحت لواء صاحب الرسالة قُدّس سره العزيز.

وهذه المناقب قريبة العهد وأحمد الله أن الحقير تسنى له زيارة الضريح ومسح وجهه به وقرأ الختمة الشريفة هناك مرتين ووهب ثوابها لروح الشيخ، وقد رجوت شفاعته.

وضريح الشيخ السيد حسن القصرى بالقرب من جامع عطية البيه، وفى قبالته ضريح الشيخ حسين وهو فى زاوية صغيرة، وفى ضريح صغير يبعد عن قبلة باب الجامع بمائة خطوة قبر الشيخ إبراهيم قرانجة وفى مقابلته ضريح الشيخ ناصر الدين أبو العمايم، وهو مدفون بجانب جامعه الذى يشبه حدائق إرم، والضريح مزار للعام والخاص، وقد مُدحت أوصافه فى طبقات الشعراوى، قُدّس سره، وقبر الشيخ سيد على وحيش وهو مدفون فى ضريح صغير داخل جامع صغير يقع بالسوق.

ضريح الشيخ حسين العجمى، وفد هذا الشيخ مع ابنه إلى محلة المرحوم من ديار العجم وهو سلطان عظيم، وقبر الشيخ عثمان الحنفى بفناء جامعه على ضفاف النيل وهو ضريح صغير داخل الجامع، وبالقرب منه ضريح الشيخ بلال الأنصارى وهو من الصحابة الكرام وهو ليس بلالاً الحبشى، فبلال الحبشى مدفون بالشام عند باب النعجة، أما بلال الأنصارى فهو مدفون بزاوية صغيرة بمدينة النهارية، ثم ضريح الست رقية ويقع فى زاويتها، وأكثر زواره من النساء، ثم ضريح الشيخ أحمد السواح وهو ضريح صغير فى الناحية اليسرى من جامعه.

ثانيًا: أما الأضرحة الموجودة خارج المدينة فهى: ضريح الشيخ نصر الدين أبو العلا، وهو شيخٌ كبير له مناقب فى طبقات الشعراوى وضريحه أبيض اللون يقع خارج المدينة فى ناحية القبلة وله جامع فخم مزين، وبالناحية الشمالية للمدينة ضريح الأولياء السبعة ويطلقون عليه مزار الأولياء السبعة لأن سبعة من الأولياء مدفونون به، وكلهم من نسل النبى يوسف، وعلى ضفاف النيل ضريح صغير للشيخ يوسف العجمى.

وعلى ضفاف الترعة الموجودة بمدينة النهارية على مقربة من المقهى ضريح على رفيعى وهو ضريح صغير وقد شاء المولى القدير أنه أثناء زيارة الحقير لهذا الضريح تهدم

جزء منه، وتم ترميمه على الفور بواسطة سبعة بنائين وعشرة عمال وعشرة قناطير من الجبس والكرج، ثم تلى الحقير ختمة شريفة فى ثلاث ليال بالضريح ووهب ثوابها لروح الشيخ ليتقبل الله، وبفناء الضريح شجرة سدر، ويعتقد التجار المغاربة الذين يأتون للنهارية لشراء الكتان فى الشيخ لأقصى درجة، ودائمًا ما يقومون بزيارته فلا يرون ضررًا فى رحلتهم، إنه سلطان عظيم.

ثم ضريح الشيخ عبد الله وهو ضريح صغير تحت شجرة سدر أمام باب وكالة الكاشف الواقعة على ضفاف النيل، وبالقرب منه ضريح الشيخ محمد الحجازى وهو خال الشيخ أحمد البدوى، سلطان عظيم من كبار الأولياء، وبمدينة النهارية آلاف الأضرحة لكبار الأولياء ولكن ما ذكرناه هو ما ذهبنا إليه فقط.

وركبنا مع رفقائنا القارب ومررنا ببلدة قلبية المقابلة لمدينة النهارية وهى بلدة عامرة بها مائة منزل على ضفاف النيل، وتقع تحت حكم عبد الرحمن أفندى أما قضاءها فثمانية أكياس، وبها جامع كبير بزاوية من زوايا فنائه ضريح الشيخ عبد السلام قليبى وهو سلطان عظيم، وهو عم الشيخ محيى الدين بن العربى المدفون بالصالحية بالشام الشريف، أتى هذا الشيخ من المغرب ودفن فى هذه البلدة؛ وقد قمنا بزيارته وقرأنا القرآن عنده، وبالقرب من ضريح الشيخ السيد عبد الواحد، ضريح صغير فى فناء الجامع الذى أنشأه الشيخ عبد الواحد من ماله الخاص، ثم عدنا بالمركب إلى الناحية الأخرى من النهارية.

فى بيان مولد النهارية

يجتمع فى هذا المولد خلق كثير مثل مولد الشيخ أحمد البدوى؛ إلا أنه لا يضاهى ذلك التجمع الموجود بمدينة طنطا، ويوجد به كل العاشقين والصادقين ويجتمع التجار والزوار وأهل الصناعات والحِرف فى هذا المولد بخيامهم الكبيرة والصغيرة، وينصب التجار والصناع الخيام كحوانيت لهم، ولا شك فى أن وجود تلك الحوانيت فى مدينة النهارية ينعشها، وفى أيام هذا المولد تنشر أيضًا مئات الخيام والحوانيت والمقاهى على ضفاف النيل تحت ظلال الأشجار حيث يبيعون ويشترون لمدة عشرة أيام بلياليها، ولكون

هذا المولد على ضفاف النيل، فإن كل زواره وتجاره يأتون بالمراكب ويشكلون جمعًا غفيرًا يعجز اللسان عن وصفه، وفى اليوم العاشر اعتزم كاشف منوف العودة إلى مصر مع جنوده ودقت طبول العودة أما كل الزوار والتجار فقد عزموا على التوجه إلى مولد إبراهيم الدسوقى.

وقد ركب الحقير زورقًا مع مجموعة من خدمه، وسرنا أربعين ميلاً فى ترعة النهارية وشاهدنا على جانبى الترعة مئات القرى العامرة ذات حدائق النخيل والورود، ثم دخلنا نهر النيل الرئيسى من عند نهاية تلك الترعة عند بلدة الفرزدق، وقد شقت الملكة دلوكه ترعة النهارية من هذا المكان وبذلك جلبت الملكة مياه النيل إلى النهارية.

تقع بلدة الفرزدق فى أراضى الغربية بها مائتا منزل وجامع، وهى قرية نقيب أشراف مصر برهان الدين أفندى، عبرنا بلدة الفرصدق وسرنا نحو ثلاثين ميلاً فوصلنا إلى قصبة محلة صا ويطلقونا فى تلك النواحى محلة على القصبة، ومحلة صا تقع فى أراضى البحيرة بها مائتا منزل وجامع جديد بمئذنة وزاوية وعشرة دكاكين ومقهى، ودار للضيافة ويقيم الملتزم والأمين فى تلك الدار ويطلقون عليها المسافر خانه، ويقوم كل الأهالى هناك بتقديم بعض محاصيلهم ليتناول منها الضيوف والمسافرون، إنها خيرات عجيبة وقد أقام الحقير ليلة فى هذه الدار.

وفى الصباح ركبنا المراكب وسرنا نحو عشرين ميلاً فوصلنا إلى محلة أبو على وتقع على النيل فى أراضى الغربية ملتزمها هو عمر الجوربجى وهى قصبة عامرة يُحصل منها سبعة أكياس مصرية، قضاءها مائة وخمسون أقچه ويتبعها خمسة وأربعون قرية آهلة يحصل لقاضيها كل سنة ثلاثة أكياس، وهذه القصبة قصبة لطيفة وعامرة على ضفاف النيل تمتد من الشرق إلى الغرب، وبها ثمانمائة منزل أسقفها مغطاة بالتراب وهى للفلاحين، وبها تسعة محاريب من بينها جامعان؛ الأول منهما يقع بالقرب من المحكمة الواقعة على ضفاف النيل وهو جامع قديم به أربعون عمودًا من المرمر، وبفنائه شجرة سدر كبيرة مرتفعة جدًا تتدلى منها الأغصان، أما الجامع الصغير الموجود بالسوق فتقام به جماعات كثيرة، وما عدا تلك المحاريب فهى زوايا، وبالمحلة خمسون حانوتًا ودكان

وثلاثة أسبلة ومكتبان للصبيان ولا يوجد بها حمام، وبها دار لملتزمها عمر الجوربجى وهى مثل القصر المنيف، تمتلئ بالغرف والقاعات.

ومن هناك ركبنا الخيول وذهبنا إلى بلدة المجنون وهى بلدة عامرة على ضفاف النيل بها مائة منزل، فى التزام مصطفى أغا أغا الانكشارية فى مصر، عبرناها ثم اتجهنا ناحية الغرب فى أراضى الغربية، فوصلنا إلى قصبة إبراهيم الدسوقى.

أوصاف قصبة إبراهيم الدسوقى

سُميت هذه القصبة على اسم الشيخ إبراهيم الدسوقى لأنه كان يقيم بها، وهى من أراضى الغربية وتبعد عن النيل بمقدار خمسمائة خطوة، ملتزمها هو قيطاس أغا الشركسى وهى قصبة عامرة بها خمسمائة منزل وبها دار ضيافة ويحكمها شيخ العرب، ويمتلك ألف جواد ويوجد مشايخ من أبناء الشيخ الدسوقى الآن فى تكية الدسوقى، بها حدائق وبساتين كثيرة وستة جوامع وجامع من آثار السلطان قايتباى من سلاطين مصر يبلغ طول هذا الجامع من باب القبلة حتى المحراب مائة وعشرون خطوة، وعرضه مائة وثلاثون خطوة وبالجامع خمسون عمودًا مرمريًا تحمل الكمرات التى تحمل السقف، وهو سقف خالٍ من الزينة، المنبر ومحفل المؤذن من الخشب أيضًا، والمحراب قديم خالٍ من الزينة، نقش فوقه بالخط الجلى عبارة: (أمر بإنشاء هذا الجامع الشريف السلطان قايتباى عز نصره).

والغرفة الموجودة أمام المحراب مدفون بها كبار الأولياء، ودائمًا ما يسطع منها النور، وللجامع أربعة أبواب اثنان منهما يطلان على القبلة والآخران يطلان على ناحية الغرب واحد منها باب للعمارة والثانى باب الميضأة، أما الباب الصغير المكشوف على حوض الشافعى فهو باب صغير ويدخل منه من يريدون تجديد الوضوء، والمكان من منتصف الجامع وحتى المحراب مرتفع يصعد إليه من مكانين بواسطة سلالم حجرية ترتفع لِستٍّ خطوات، وعند الباب الموجود فى الناحية اليسرى من البابين المطلين على القبلة توجد مئذنة موزونة غاية فى الجمال صُنعت بدقة ومهارة تجعلها لا يوجد مثلها فى مصر وبقية

الديار الأخرى، ترتفع هذه المئذنة لمائة وخمسة أقدام وهى ثلاثة طوابق، إنها مئذنة تثير العجب، وأسفلها باب يتم الدخول منه إلى ضريح قطب الأقطاب الشيخ إبراهيم الدسوقى قُدّس سره العزيز حيث يرقد فى هذا الضريح مستغرقًا فى نور الله مرشد الناس السلطان العارف بالله الشيخ إبراهيم الدسوقى، ولم تكن قبة الشيخ إبراهيم الدسوقى مزينة بنفس الزينة الموجودة فى ضريح السيد أحمد البدوى وتوجد بعض المعلقات فقط بالضريح من الداخل لم يكن بها تكلف.

على أية حال لم يكن لضريح إبراهيم الدسوقى هذا الحظ من الزينة، وعلى الجوانب الأربعة للضريح مجموعة من القناديل ومئات الشموع والأعلام البرهانية، أما أرضية الضريح فهى أرضية من المرمر ليست مفروشة، ويطل باب الضريح على ناحية الشمال ويدخل منه الزوار إلى الضريح ويؤدون ركعتين بجوار المحراب ثم يذهبون، وبوسط تلك القبة قفص خشبى بداخله صندوق الضريح وهو مغطى بالصوف الأخضر كما توجد عمامة خضراء عند رأسه فهو حسيب النسب من العرق الطاهر والسادات الكرام، كان الشيخ إبراهيم الدسوقى معاصراً للبدوى وهم أبناء عمومة والبدوى كان من الدراويش الأميين، أما إبراهيم الدسوقى فكان سلطانًا مصنفًا مؤلفًا وله الآن مئات المجلدات والمؤلفات كلها كتب قيمة عن العلم اللدنى، وله أشعار بليغة وفصيحة وهى أبيات فى التصوف تقرأ بين المتصوفة، وله مئات الكرامات والمناقب المذكورة فى بعض مناقب الأولياء وطبقات الشعراوى، لم يشتغل الدسوقى باللهو واللعب مع الصبيان فى زمن صباه فقد كان يقوم الليل ويصوم النهار وأصبح صاحب سجادة لآلاف المشايخ وأرشد آلاف الرجال، ولا يستمع أى شخص تارك للصلاة أو شارب للخمر من أهل الهوى إلى أبيات الشيخ الدسوقى إلا ويتوب على الفور ويصبح من أهل السلوك، وقبة ضريح الدسوقى مغطاة بالكلس الأبيض يعلوها علم كبير من النحاس الأخضر، لو حدثت أى مصيبة كبرى أو مات أى سلطان فإن هذا العلم النحاس الأخضر يميل ناحية الشرق أو الغرب من ناحية القبلة وبذلك يعلم جميع طوائف العربان الموجودين هناك أنه

قد حدثت مصيبة بتلك الديار التى مال العلم ناحيتها لذا يقول طائفة العربان وهم يصيحون يا دسوقى يا مولى النحاس.

وفى اليوم الذى استشهد فيه السلطان إبراهيم فى الروم مال هذا العلم نحو الغرب ولا يستطيع أحد أن يضع يده على هذا العلم، ودوران هذا العلم هكذا كرامة، وتلك كرامة أخرى حدثت فى ضريح الدسوقى عندما كان الحقير يقوم بزيارة إبراهيم الدسوقى رأى رجلاً يصيح داخل الضريح، إنه رجل من حجاج الروم وضع ألف عملة ذهبية فى حافظته وذهب لزيارة إبراهيم الدسوقى وبينما هو فى هذا الخضم العجيب من البشر قام لص محترف بسرقة الألف عملة ذهبية منه فصاح الرجل يا دسوقى هل هذا يليق بك؟ لقد زرتك وقلت فى نفسى: ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولكن سرقت منى أموالى الذهبية التى أنوى الذهاب بها إلى الحج الشريف، سُرقت منى على أعتابك هل هذا يصح؟ والله سأشتكى منك لله، وعلى الفور تجمع الناس عند باب الضريح حيث كان هناك رجل يرتدى عباءة سوداء وعيونه مكحلة ويمسك فى يده المسبحة، كان الرجل قد أصابته نوبة صرع سقط فى الضريح لا يستطيع التحرك ولكن لسان حاله كان يشير على بنطاله، حاول أحد خدام الضريح وأحد خدام الحقير إخراج جسد الرجل من الضريح ولكنهم لم يستطيعوا ذلك واستخرجوا من جيب بنطاله الألف قطعة ذهبية وردوها لصاحبها، فصعد الرجل على الفور إلى حرم الجامع وأعطى لكل حافظ من الحفاظ العشرة عملة ذهبية وذلك ليقرأوا ختمة شريفة لروح إبراهيم الدسوقى، كما تصدق بمائة عملة ذهبية على الفقراء الموجودين فى حرم الجامع، أما اللص فقد قضى ليلته فى فناء الجامع وهو جريح فقام بعض المشايخ بقراءة حزب البحر وبعض التعازيم عليه حتى شفى إلا أن يديه كانتا فى حكم المشلولتين وذهب الرجل على ذلك، وقد رأينا هذا الشخص فى الإسكندرية عندما ذهبنا إليها بعد ذلك فكانت يداه معوجتين.

خلاصة القول أن إبراهيم الدسوقى سلطان. وقد شاهد تلك الكرامة المارة الذكر مئات البشر عندما حدثت قُدّس سره العزيز.

وفى الناحية اليمنى لهذا الضريح يوجد لوح من المرمر عليه أثر قدم النبى ﷺ على أحد الحجارة، ومكان قدم النبى وضع ماء الورد يقوم كل الزوار بالأخذ منه ويمسحون به وجوههم ثم يقبلون الحجر الموجود عليه أثر قدم النبى ويطلبون الشفاعة وعند رأس الشيخ إبراهيم الدسوقى نقشت عبارة: (أمر بتجديد هذه الشبكة المباركة بهرام أغا ابن شيخ محمد) بالخط الجلى على لوحة مرمرية، وفى الناحية اليسرى لمحراب الضريح باب صغير يتم الدخول منه إلى حجرة صغيرة بها ضريح الشيخ سيد موسى بن الشيخ إبراهيم الدسوقى وليس بها أى زينة تذكر، بالإضافة إلى قبتين صغيرتين فى فناء الجامع، أما القبة الموجودة فى ناحية باب العمارة فمدفون بها بهرام أغا الذى قام بتعمير وترميم ضريح إبراهيم الدسوقى، والصفة الخارجية والسطح والقبة الموجودة على يسار هذه القبة مدفون بها حفيد إبراهيم الدسوقى وهو الشيخ عبد الله أبو الطيور ابن الشيخ موسى كان هذا الشيخ خليفة للدسوقى بعد وفاته.

وأبواب هذه القباب الصغيرة كلها مكشوفة ناحية الشمال، وبكل قبة منها نافذة أو نافذتان تطل على الحرم، وبعمارة هذه التكية أوعية كبيرة للغاية يوضع فى كل واحدة منها أيام المولد ثلاثة أو أربع من الجاموس أو عشر نعاج، ويطبخ فى أحد تلك الأوعية شوربة القمح كما يتم صنع عشرين ألف رغيف خبز وتقدم كل تلك الأطعمة للفقراء والمساكين ويقدم الطعام على هذا المنوال عشرة أيام بلياليها. أما فى الأوقات المعتادة فيتم طهى إناء واحد فقط من شوربة العدس والقمح وثلاثة آلاف رغيف وتقدم للفقراء والمساكين والطلاب، وذلك لأن غرف الطلاب والمريدين وهى تزيد على مائة غرفة تصطف على الجهات الأربعة حول فناء الجامع بها أناس يشتغلون بالعلم والطاعة والذكر وناظر تلك الأوقاف هو السيد يحيى من أبناء إبراهيم الدسوقى وابنه الشيخ سيد شريف الدين ودائمًا ما يقوم بالإنفاق على المريدين والمساكين ومنازل المذكورين تقع فى فناء الجامع.

وبتلك القصبة خانان وعشرة حوانيت ولا يوجد بها حمام أو مدرسة، وبها سبيل للمياه، بفناء الجامع، يشرب منه كل الزوار إنه ماء الحياة، عبارة عن صهريج مثل البحر

لا ينقص قطرة، والحوانيت المذكورة موقوفة على هذا السبيل وفى أيام المولد تُنصب آلاف الحوانيت والدكاكين من الخوص والغاب والكليم والخيام فى مكان المولد وبطول ساحل النيل ولا يعلم عدد تلك الحوانيت سوى الله حيث يأتى تجار الأقمشة من الهند واليمن ويستمر البيع والشراء عشرة أيام بلياليها، ويقدر هذا البيع والشراء بمئات الآلاف من القروش، وبخلاف الحوانيت فإن الطريق الرئيسى قد زين من على جانبيه بالمقاهى وبائعى الخبز وهو ما يضفى الجمال على الطريق بأكمله، وبكل مقهى من تلك المقاهى توجد الراقصات وأهل الغناء ومَنْ يعزف الرباب، كما تنتشر الأسواق فى فناء جامع إبرهيم الدسوقى وخارج الفناء وتباع فيها الأشياء القيمة.

وهذا المكان مكان جيد للبيع والشراء لأنه داخل المدينة ويزيد مولد إبراهيم الدسوقى على مولد البدوى بأنه يأتيه أناس كثيرون وذلك لوجود المدينة على ساحل النيل فيأتى الزوار فى ألفى مركب وسفينة وصندل وزورق من كل المناطق الواقعة على نهر النيل من الإسكندرية وحتى الصعيد وبذلك يجتمع أناس كثيرون فى مولد الدسوقى ويكون هذا الجمع كاليم، وترسو تلك السفن والمراكب على شاطئ النيل وقد تزين كل مركب منها بأربعين أو خمسين أو مائة أو مائتى راية وعلم كما يوجد بها آلاف القناديل، وبكل سفينة من السفن الجريم والعقبة الآلات والأسلحة، ويتم تجهيز المقاعد للضيوف القادمين، ويضاء كل ليلة مئات الآلاف من القناديل حتى وقت السحر وتطلق الأعيرة النارية والفشنك، وتدق الطبول فى كل النواحى، فتكون كل ليلة ونهار من تلك الأيام بمثابة عيد الأضحى.

كما يقوم أصحاب الخيام والحوانيت برش المياه أمام الخيام والحوانيت مما لا يسمح بوجود ذرة غبار واحدة، ويطيب النسيم فيحيى العاشقين، ويخرج العاشقون من المراكب والسفن وينتشرون على ضفاف النيل وينصبون خيامهم تحت أشجار النخيل ويطهون الأطعمة النفيسة، ويعيشون على ذلك ليلاً ونهاراً ويصبح مجلسهم مثل مجلس حسين بيقارا بسبب المطربين والعازفين ففى كل ناحية وزاوية تجد جماعة تجلس مع

بعضها يتسامرون أحيانًا ويذكرون تارة أخرى وبالرغم من ذلك يكون عدد الخيام فى مولد أحمد البدوى أكبر من عدد الخيام فى مولد إبراهيم الدسوقى، وذلك لأن حوالى أربعين أو خمسين ألف من الفلاحين والملاحين يرقدون فى السفن والمراكب، أما بالنسبة لعدد الرجال فمولد الدسوقى أكبر من حيث العدد والجمع به يكون مثل البحر، حيث يختلط الكتف بالكتف من شدة الزحام وتأتى السفن من كل البلدان بالطعام والشراب، وينصب مشايخ الطرق خيامهم فى أحد أطراف تلك المدينة على المراعى والأراضى الخضراء وينشغلون بالذكر فى كل ليلة حتى الصباح، ويصل صدى ذكرهم إلى عنان السماء.

وفرقة أخرى تركب السفن ليلاً وتصل حتى محلة أبو على ويطلقون الأعيرة النارية والفشنك وهم يهتفون باسم السلطان محمد خان، ويدقون الطبول ويسيرون مع النيل ثم يأتون إلى مركزهم ويستقرون به، أما طائفة العربان فإنهم يصفقون ويقولون: (الله ينصر السلطان) وتصبح خيامهم وأسواقهم بذلك أشبه بضجيج الهند كما يبقى فى كل سفينة ومركب ألفى رجل يقومون بالدعاء بالخير للسلطان وكل سفن المشايخ فى مولد الدسوقى مثل سفن المشايخ فى مولد البدوى أربع طبقات.

وفى اليوم الثامن من مولد الدسوقى وهو يوم الأربعاء ينادى الدلالون فى قصبة دمنهور بولاية البحيرة بالمولد الشريف فيذهب موكب عظيم به سبعمائة من المشايخ وعشرين ألف من الدراويش والمريدين بالكسوة الشريفة الخاصة بالشيخ الدسوقى ويضعونها على صندوق ضريحه وفى يوم الجمعة يخرج الموكب العظيم على دقات الطبول والتوحيد بوضع الكسوة على ضريح الشيخ إبراهيم الدسوقى، ويكون بهذا الموكب سبعمائة من المشايخ وأربعين ألف مريد ودرويش من مريدى الطرق البرهانية والرفاعية والجيلانية ويقومون بتجديد الكسوة على الضريح ثم يدعون للسلطان وكل سلاطين آل عثمان ولأصحاب الخيرات بالخير.

وفى ذلك اليوم يؤدى كاشف الغربية خدمة أيضًا، حيث يذهب كل الزوار والتجار

إلى أوطانهم بعد انتهاء المولد، وتفترق كل الجماعات عن بعضها البعض ويصبح ميدان دسوق وهو يضطرب بين ساعة وأخرى ولكن يبقى من هذا الجمع الغفير سبعمائة شيخ من الخلفاء، وبعد رحيل كل الزوار وانتهاء الضوضاء وسكون المكان، يذهب هؤلاء المشايخ ليلة السبت إلى جامع إبراهيم الدسوقى ويجتمع الصلحاء والمشايخ والدراويش فيكون المولد الشريف فى تلك الليلة المباركة ويحرقون العود والعنبر والبخور، وينثرون ماء الورد فى تكية الدسوقى، ويتناولون الأرز باللبن والسكر ويشربون المشروبات الممزوجة بالمسك، وهذه العادة من كل حسنات سيد مصطفى أغا مندلى زاده فى رشيد، ويقوم كل المريدين بإحياء تلك الليلة حتى الصباح فيختم مئات حفاظ القرآن الكريم ويجلسون جماعات جماعات يذكرون الله بذكر لا يخص أى طريقة، وبهذا التجمع روحانية وأسرار شوق لا يشعر بها سوى العاشقين فقط ولو استمع أى جاحد أو صاحب قلب متحجر لهذا الذكر فإنه سيتوب على الفور، إنه الطريق البرهانى وهو مشهور بين طرق أهل التوحيد.

ولا يستطيع أى مريد من أى طريق آخر القيام بهذا التوحيد الخاص بالطريق البرهانى، ويتحمله فقط القادرى والمطاوعى، وتعد تلك الليلة بمثابة ليلة الإسراء، بعد ذلك وفى صباح اليوم التالى يقومون بزيارة الوداع، ويستأذن كل المريدين من الخليفة وبذلك لا يبقى شخص واحد فى ميدان دسوق، حيث يركب كل المشايخ المراكب ويذهبون إلى ديارهم، وقد أدى الحقير زيارة الوداع هذه وختم القرآن وأهدى ثوابه لروح الدسوقى وطلب منه الشفاعة ليتقبل الله، ثم قبلنا يد الشيخ شرف الدين وسرنا لمسافة ثلاثة أميال فى نهر النيل فوصلنا إلى بلد مرقاص وهى فى أراضى البحيرة على ساحل النيل وهى عبارة عن قرية عامرة بها مائة منزل وحدائق النخيل، وينزل كل المشايخ فى تلك القرية حيث يحتفلون بمولد الشيخ أبو المجد بن الشيخ إبراهيم الدسوقى وهو مدفون فى ضريح عالٍ يقع فى حديقة نخيل وورود بجوار الجامع الكبير الموجود بالقرية حيث يحتفلون به ليلة واحدة، وللشيخ أبو المجد مئات المناقب والكرامات منها أنه أدى الحج ماشيًا سبعين مرة.

توفى عام ( )[1] أما الشيخ إبراهيم الدسوقى فقد ولد عام ( )[2] ومدة عمره ( )[3] وتوفى فى عهد ( )[4]، ويجتمع فى تكية الشيخ أبو المجد آلاف العاشقين الصادقين العارفين ويتسامرون يومًا وليلة، يقرأون فيها المولد، وتتلى فى تلك الليلة مئات الختمات الشريفة، ثم يركب الجميع المراكب، ويذهبون إلى بلادهم وقد قام الحقير بتوديع الشيخ الشناوى والشيخ شرف الدين وحصل منهم على الدعوات بالخير وركب المركب وأبحر فى النيل حتى وصلنا إلى بلد الرحمانية المقابلة لمدينة إبراهيم الدسوقى وتقع بلدة الرحمانية فى أراضى البحيرة وهى فى التزام قيطاس أغا الشركسى وهى قرية عامرة بها خمسمائة منزل وستة حوانيت وثلاثة جوامع ومئذنة واحدة ومصنع سكر وستة مقاهٍ ودار الضيافة بها عامرة للغاية وكأنها القصر العالى المنيف، وتشتهر تلك القرية بمزارع قصب السكر ويتحصل للملتزم منها سنويًا من محصول السكر والمحاصيل الأخرى عشرة أكياس، وأحد الجوامع الثلاثة المذكورة من بناء السيد نفيس ويوجد أمام محراب الجامع أربعة أضرحة مدفون بها أربعة من أبناء الشيخ سيد نفيس وهم الابن الأكبر الشيخ سيد محمد يليه الشيخ سيد سليمان يليه الشيخ سيد محمود وكلهم من السادة الكرام وبخلاف تلك الأضرحة توجد أضرحة أخرى لكننا لا نعلم لمن كانت تلك الأضرحة وكلهم خلفاء للطريقة البرهانية، والجامع جديد وعامر قبته مطلية بالكلس الأبيض وبه مئذنة وعلى منبره آية: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] وقد قرأ الحقير فى هذا الجامع ختمة شريفة لروح كل واحد من المدفونين فى هذا الجامع، ثم ذهبنا إلى قصر قيطاس أغا وركبنا الخيول الكحيلانية مع حضرة الشيخ الشناوى وسرنا على دقات الطبول والدفوف إلى مدينة دمنهور لحضور مولد الشيخ أبو الريش.

(١ : ٤) بياض فى الأصل.

المنازل التى مررنا بها فى طريقنا إلى دمنهور

عبرنا غربًا من بلدة الرحمانية حتى وصلنا إلى بلدة الداودية وهى قرية عامرة بها مائة منزل وجامع وبها ضريح الشيخ عطا الله السنهورى وهو بين الأشجار على الطريق العام وقد قرأنا الفاتحة لروحه ثم سرنا ناحية الغرب فى صحراء كبيرة فوصلنا إلى بلدة السنهورية وهى قرية تقع فى أراضى البحيرة فى وسط الصحراء بها ثلاثمائة وعشر منازل وجامع على هضبة مرتفعة ثم سرنا غربًا فى الصحراء على ضفاف ترعة الملك الأشرف فوصلنا إلى دمنهور.

أوصاف المدينة القديمة دمنهور

يطلقون عليها خطأ دمنهور من كلمة دم نهور وسبب تسميتها بهذا الاسم أنه عندما فتح عمرو بن العاص مصر فى عهد عمر بن الخطاب وبعدها بسبع سنوات أرسل عمرو ثلاثة آلاف جندى للبحيرة لتأمين مسيرة الحجاج المغاربة فقام الملك قوطيس القبطى أخو الملك المقوقس بحصار البحيرة ودارت الحرب بينه وبين جند المسلمين لمدة سبعة أيام صارت الدماء فيها مثل الأنهار فأطلق عليها بعد الفتح دم نهور وأصبح يقال عليها خطأ دمنهور، ولا توجد حكومة تملك إيالات كثيرة أكثر من دمنهور فى أقاليم مصر فتمتد حدودها حتى الجنوب إلى الصعيد وإلى طرابلس وإلى الجبل الأخضر وإلى الواحات ويلزم لها كاشفون ذوى جرأة وشجاعة يعملون على الضبط والربط لشتى صنوف الأهالى الموجودين فى تلك البقعة الواسعة.

ويحصل منها مائتى كيس وبها ثلاثمائة وستون قرية تابعة لها ولحاكمها خمسمائة جندى من الخيالة وخمسمائة مسلح بالبنادق وهذا أقل ما يكون بجانب حاكم إيالة دمنهور والسبب فى ذلك العربان العصاة الذين يأتون من الجبل الأخضر وهم قبائل الجندارى وهم يمتلكون عشرة آلاف جندى وقبائل بهجة ويمتلكون نفس العدد وقبائل البدو ولا يعلم عددهم إلا الله، وقبائل أولاد رجعيم ابن سيدنا سليمان وبها ثمانية آلاف بدوى، وقبائل بنى عون، وعندهم سبعة آلاف جندى وقبائل بنى نخمة وعددهم

ثلاثة آلاف، ويتصفون بالشجاعة، وقبائل الضعفا وهم ثلاثة آلاف رجل يقيمون فى أراضى البحيرة والفيوم حيث يتنقلون من مكان إلى مكان وهم قوم مطيعون، وقبائل أفراد وجوابى وربانسه وطرحونه طرفة وأولاد حسن ونداره وسمه لوس وطويلى وسعادى وجلاسى وبنى قمامطة وبنى هداهد وعربان محاريب وعربان زرق وأولاد بنى وفا وهؤلاء وفدوا من المغرب واستقروا هناك وعندهم من الجند خمسة آلاف، وبخلاف هؤلاء يوجد مئات القبائل من العربان ولكن لاختلاطهم اكتفينا بذكر المذكورين فقط وهم عربان غرباء يحتاجون للغلال، وإذا ما جاء موسم الحصاد ينهبون الغلال بالرماح فينهبون القرى ويغيرون عليها ويأخذون ما فيها مجانًا، ثم بعد ذلك يذهبون إلى الصحارى التى يقيمون بها، لذا يجب أن يكون كاشف البحيرة حاكمًا ذا جرأة وشجاعة ومعه من الجند ما يكفيه، ولمدينة البحيرة محافظ على ألف جندى من جنود البلوكات السبعة لجند مصر وقائد للإنكشارية ورئيس لجنود العزب ونقيب للأشراف، ويوجد كاشف آخر تحت الكاشف الرئيسى للإيالة، أولاً كاشف روم بيه ويقيم فى مدينة حوش عيسى وكاشف طرانه وكاشف صيف درج وكاشف مجيلة وكاشف البحيرة المالحة، وقد استطاع أشقياء طرابلس الغرب أن يَغْصِبُوا الذهب بالقوة لمدة ستة وعشرين سنة.

وكل كاشف من الكاشفين المذكورين له خمسمائة أو ستمائة جندى وله راية وكلهم يمنحون الخلعة من كاشف إيالة البحيرة وليس من ديوان مصر، والحاصل أن كشوفية البحيرة عبارة عن حكومة لدى قضاء البحيرة ويحصل سنويًا ثلاثة آلاف قرش، حيث يوجد بقضاء البحيرة ثلاثمائة وست وستين قرية وستة نواحٍ هى نواحى طرانه والرحمانية وحوش بنى عيسى وصيف درج وناحية المدينة ومعظم أهالى تلك النواحى عصاة غير مطيعين، أما مدينة دمنهور فتقع على ضفاف ترعة الملك الأشرف فى وسط صحراء البحيرة على الناحية الشرقية لها وتبعد عن النيل بمقدار أربع ساعات وهى ناحية الرحمانية، أما الناحية الشمالية فتقع على ضفاف بحيرة مالحة يطلقون عليها ترعة الناصرية تبعد نصف ساعة عن النيل وعلى مسافة عشر ساعات بعد عبور عدة قرى عامرة توجد مدينة الإسكندرية، وطول مدينة دمنهور من الشرق إلى الغرب ثلاثة آلاف

خطوة وبها خمسة آلاف وخمسمائة منزل مسقوفة بأسقف بنيت من الطين، كما توجد بها منازل للفقراء، وعشرين محلة وسبع وسبعين مصلى بالتفصيل على ما يلى: جامع الأمير عامر بمحلة المنيل الواقعة بالجهة الشرقية لدمنهور وهو جامع كبير وقديم وتقام به جماعات كثيرة وهو جامع فسيح يبلغ بالخطوة المتوسطة مائة خطوة بالتمام طولاً وعرضًا، وبه اثنان وثلاثون عمودًا من المرمر تحمل السقف المنقوش أما سطح الجامع فهو مغطى بالكلس، وللمسجد ثلاثة أبواب باب القبلة وينزل منه للجامع بواسطة أربع درجات سلمية والبابان الجانبيان أيضًا لكل باب منهم سلم يبلغ أربع درجات سلمية وتوجد مئذنة مربعة ذات ثلاث طوابق تقع خارج الجامع وهى بعيدة عن باب القبلة، وهى مئذنة مرتفعة بنيت بمهارة أظهر فيها صانعها مهارته وخبرته.

وبوسط فناء الجامع توجد شجرة سدر قديمة ولكنها تثمر نبقًا عجيبًا، ومحراب الجامع على الطراز القديم أما المنبر فهو من الخشب المحفور وعليه لوحة خطية وعلى باب المنبر توجد لوحة منقوش عليها بالخط الجلى المحفور على الخشب عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم إنشاء هذا المنبر المبارك والجنابى العالى الأمراء الكبير عامر بن المرحوم الرابى إسماعيل بن عامر غفر الله والديه والمسلمين وكان الفراغ من هذا المكان سنة اثنين وسبعمائة).

وعلى الحائط الأيمن لهذا المنبر توجد لوحة بطول الحائط من المرمر الأبيض نقش عليها بالخط الجلى عبارة:

(تعمر هذا الجامع سنة أربع وخمسين وثمانمائة).

وعلى مقربة من هذا الجامع يوجد جامع صغير ذو مئذنة من طابق واحد هو جامع أبو السعود، وبالسوق جامع به عشرون عمودًا من المرمر يطلقون عليه جامع التوبة وجامع العرب، وهو جامع مزين من على حوائطه بالأحاديث النبوية المكتوبة على الحوائط بين المصابيح والمشاريق وله باب يطل على السوق ومئذنة موزونة ذات ثلاث طوابق، وله باب أيضًا على يسار المحراب وباب آخر للحرم أما محفل المؤذن فهو محفل فى غاية المهارة من حيث الصنع مرفوع على أربعة أعمدة مرمرية محيطة مقدار ذراع أى

أن العمود مثل الذراع لذا يخاف أى شخص يصعد إليه ومحراب الجامع قديم، على جانبيه عمودان مرمريان فى غاية الجمال، وبداخل المحراب نقش خطى بخط الثلث مكتوب على أرضية مرمرية وهو لآية قرآنية: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦].

وأمام قصر الكاشف جامع المرحوم وهو جامع عتيق، وقد سمى بجامع المرحوم نظرًا لأن كل صلوات الجنازة تؤدى فيه، طوله وعرضه مائة خطوة، بديع البناء للغاية، وبه اثنين وثلاثين كمره تشبه الأعمدة تحمل السقف، وليس بالجامع قبة، وللجامع ثلاثة أبواب اثنان جانبيان وواحد للقبلة، وبوسط فناء الجامع شجرتى نخيل وشجرة سدر، تحت تلك الأشجار توجد صنابير على حجر أزرق يقوم أصحاب المذهب الحنفى بتجديد وضوئهم منها، ولهذا الحجر قصة وهى أنه كان قديمًا قبرًا لأحد ملوك القبط وعندما استولى العربان عليه ألقوا التابوت خارجًا واستخدموا مكانه كمرحاض (بيت خلاء) وعلى الجوانب الأربعة للحوض توجد نقوش خطية للكهنة القدامى وقد تحولت فى أقاليم مصر ثمانى سنوات ولم أرَ مثل تلك النقوش فى إسنا أو أسوان فهو حجر ملىء بالغرائب والعجائب، ويقول بعض أصحاب الحرف أنهم يعجنون هذا الحجر ويستخدمونه فى بعض الخزف والصناعات، ولا يوجد بهذا الجامع أى طلاءات بالكلس وليس له مئذنة.

وتوجد ثمانية أعمدة مرمرية على الجهة الجانبية على جانبى باب القبلة، أعمدة فى غاية الجمال لا يشبهها أعمدة، ولكن نظرًا لتوقف أوقاف الجامع فقد بقى الجامع معطلاً، وعلى منبره نقوش محفورة على الخشب نقوش عربية ونجوم وقطع القيشانى وأفرع نباتية، إنه منبر عجيب وغريب كاللوحة الفنية حتى أن بعض الرسامين سرقوا الصنعة منه، وعلى باب هذا المنبر لوحة بها نقش خطى مكتوب بالخط المحفور كتب بها عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين جدد هذا

الجامع المبارك العبد الحقير إلى الله تعالى الأمير الكبير الشريف عيسى بن الجناب العالى المرحوم المخدوم إسماعيل المرحوم الزينى أمير عامر عربان إقليم البحيرة أعز الله أنصاره ورحمه وكان الفراغ من ذلك فى شهر محرم الحرام سنة ٦٣ وسبعمائة بعد الهجرة النبوية).

وعلى مسافة خمسين خطوة من الناحية الشمالية لهذا الجامع جامع السلطان قايتباى ومرقوم عليه أنه جامع سيدى شعبان وهو جامع أنور له روحانية به جماعات كثيرة وله مئذنة ذات طبقة واحدة وبالجامع عشرة أعمدة مرمرية تحمل السقف المزين وعلى باب منبره الخشبى نقش خطى بالخط البنفسجى المذهب عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك فى أيام مولانا السلطان مالك الممالك الأشرف أبو النصر قايتباى أعز الله أنصاره فى شهر ذى الحجة الحرام سنة أربع وستين وثمانمائة بعد الهجرة).

وبالسوق جامع صغير هو جامع الشيخ أحمد الدواوى وبه مئذنة طويلة ذات ثلاث طوابق، وعلى مسافة سبعمائة خطوة خارج مدينة دمنهور من الناحية الشرقية جامع صغير ذو مئذنة منخفضة هو جامع أبو الريش وبفنائه شجرة سدر كبيرة وبالجبانة التى تقع خارج المدينة جامع العباس وبه مزار خالٍ ولكنه مزار للخاص والعام ويتم الآن بناء الجامع الجديد الذى أمر ببنائه أحمد أغا رئيس جنود العزب فى الميناء الواقع على ترعة الملك الأشرف وهو جامع صغير بنى بمهارة وإبداع ظاهرين وملحق به مئذنة مبهجة للقلوب اللهم يسر إتمامه بالخير.

وبمدينة دمنهور عشرة مآذن وهى العشر مساجد التى ذكرناها آنفًا، وباقى الجوامع الموجودة بالمدينة عبارة عن مساجد صغيرة، وبالمدينة سبع تكايا وأربعين مكتبًا للصبيان وأحد عشر سبيلاً وفى بعض زوايا المدينة توجد قباب لأسبلة صغيرة، وبالمدينة ثلاث مدارس وحمامان، أحدهما يقع فى فناء جامع المولى وهو حمام قديم وبناؤه وهواؤه لطيف أما الحمام الموجود بالسوق فهو حمام منخفض وهو حمام الشيخ أبو السعود وهو حمام صغير وبالمدينة ستمائة وثمانون حانوتًا وبها ثمان خانات وسبع مقاهٍ وسبعة

وأربعون مغـزلاً لنسيج الأقمشـة وماتتى حانوت لأعمال الـطلاء وسبعة مصانـع للطلاء أميرية.

هذا السـوق السلطانى مـغطى من أوله إلـى آخره من أعلى والـطريق العام بالمـدينة واسع، وكل منازلـها سواء كانت للفقـراء أو الأغنياء منازل عامرة ذات طـابقين، وكل مياهها من الآبار وبها نـسبة ملوحة وهناك مياه خاصة يستخدمونـها للشرب ويوجد بئر على طريق أبـو الريش يشرب منه أعيان وكبـار المدينة مياهه لذيذة وهـى عبارة عن ماء البرد وطقس المدينة ليس مرغوبًا فيه.

ولا يوجد بالمـدينة حدائق أو بسـاتين إلا أن أشجار النخيـل تحيط بجوانبـها الأربعة وتأتى معظـم فاكهة تلك المدينة من بـلدة صف درج وبالمدينة نوعٌ من الـعنب أجود من عنب الفيوم، ولأن أرض تلك المدينة مالحة إلى حد مـا فإن محصولها من القمح قليل، ولون بشرة الأهالـى هناك قمحية، ويتزاوج عربـان بهيجة وضارى من بعضـهم البعض وتتزيـن معظم الـنساء والفتـيات هناك بـالوشم الأزرق على أيـديهن وأذرعهـن وأيضًا بالكردان والخـلخال[1] الفضـى والذهبى وترتـدى النساء الأثـرياء هناك البـرقع الأسود ويرتدين الأقمصة الحريرية، ويرتدى الأعيان مـن الرجال الملابس الصوفية، أما فقراءهم فيرتدون الـفرجية[2] المصريـة. والقماش فى دمـنهور من أكثر الـصناعات هنـاك شهرة خاصة الأزرق والأحمر الفاتح منه والكليم من أشـهر صناعات القماش فى دمنهور فهم يصنعـون كليمًا بطول أربـعين أو خمسين ذراعًا ويمكـن أن تستعمل أربعـين أو خمسين عامًا، كمـا تشتهر المدينـة بالزيت الحار أى زيت بـذر الكتان والخبز الأبيـض والباذنجان الكبير التى تبـلغ الواحدة منه مثل حجم رأس الإنسان والملح والحـصير المتعدد الألوان، كما يوجد ببحيرة المدينة أنواع مختلفـة من الأسماك، وبقرية صفد أنواع كثيرة من الثمار والعنب الجيـد، والحاصـل أنها مدينـة كبيرة ولكن لـوجود اللصوص بها لا يسـتطيع

(١) الكردان: حُلى تزين الصدر وتلبس فى الرقبة كالقلائـد، والخلخال: تلبسه النساء فوق الكعبين وكلاهما مشهور معروف.

(٢) ثوب واسع من الصوف طويل الكمين.

الأهالى النوم فى راحة خشية اللصوص حيث يقوم الأهالى بحراسة المنازل ليلاً بالتناوب وهم مسلحون.

حتى أنه عندما كان الحقير هناك هجم اللصوص على منزل رئيس جنود العزب ودارت معركة كبيرة وسقط سبعة من اللصوص وفر الباقون ولكن بعد أن سرقت ناقة من النوق الموجودة بالفناء الخارجى للقصر، ويقوم مائتى غفير بحماية وحراسة المدينة كل ليلة حيث يحيطون بأطراف المدينة، ويجمع لهم سنويًا من الأهالى ألفى قرش، والحاصل أنه لو كان هناك حاكم شديد وجرىء فإن هؤلاء اللصوص لن يستطيعوا دخول المدينة، والسلام.

فى بيان الأولياء المدفونين داخل وخارج دمنهور

أولاً: بلدة الشيخ أبو الريش وتقع شرق مدينة دمنهور على مسافة سبعمائة خطوة، وبها مائتا منزل معظم ساكنوها من أبناء وأحفاد الشيخ أبو الريش وهم من السادات الكرام وبالبلدة جامع به منارة منخفضة ذات طبقة واحدة وبفنائه شجرة سدر كبيرة وفى فناء هذا الجامع دُفن بعض أعيان وأشراف البلدة وأحد أبواب الفناء يطل على القبلة والآخر يطل على جهة الشرق والجامع ليس مزينًا وكبيرًا إلا أن جماعته كثيرة لأنه لا يخلو من الزوار فى معظم الأوقات وبالناحية اليمنى للجامع يوجد ضريح متصل به وهو ضريح مقبب قبته متصلة بسطح الجامع مدفون فى هذا الضريح الشيخ القطب والغوث الأعظم على الإطلاق مرشد الطريقة وعين الشريعة الشيخ عطاء الله أبو الريش وهو من سلالة آل عباس قُدّس سره العزيز وهو مدفون فى هذا الضريح وجميع متعلقاته موجودة معه فى هذا الضريح أيضًا حول الفسقية، وقد وصل الحقير إلى هناك فى اليوم السادس من شهر جمادى الآخرة عام ١٠٨٣هـ وكان يوافق يوم مولد الشيخ أبو الريش حيث ذهبنا عند الشيخ الشناوى إلى منزل صاحب السجادة الشيخ شمس الدين الدمنهورى وهو من أبناء الشيخ أبو الريش وكان شيخًا معمرًا يبلغ عمره ١٣٦سنة له وجه منير، فقمنا بتقبيل يديه ونلنا من دعواته بالخير.

والشيخ شمس الدين من الزهاد عاش تلك الفترة كلها يحافظ على صيام داود ولم يتناول خلال المائة وستة وثلاثين سنة أى لحوم قط ولم يأكل خبز القمح بل كان يزرع الشعير فى فدان أرض كان يمتلكه ويحصده بيده ويطحنه بيده على مطحنة يدوية ويأكل منه، كان من أهل الحال قضى عمره كله منزويًا فى ركن من أركان الوحدة منشغلاً بالتعبد والطاعة، وكان الشيخ شمس الدين يمنح كل شخص يأتى إليه رغيف خبز من الشعير تبركًا وتيمنًا وكان الرغيف الواحد بعشرين درهمًا، وعندما ذهب الحقير إليه أعطى له أربعة أرغفة فتناول الحقير واحدًا والشيخ الشناوى ثلاثة لبقية الحاضرين بالمجلس لكل شخص واحد أو اثنين، وقال الشيخ للحضور: يا إخوان إن لنا صلاة قضاء دين علينا لم نصلها منذ عهد طفولتنا، إن شاء الله غدًا وفى مولد جدنا الشيخ أبو الريش تأخذونى إلى المولد وليصلى معى ثلاثمائة شخص صلاة القضاء وهذه هى كل أموالى وهى حلال وهى ألف أقجة ولتكن عند الشيخ الشناوى لأنه رجل يعتمد عليه.

ثم قام الشيخ بتسليم ألف أقجة إلى الشيخ الشناوى وقال للحضور يا إخوان لتأتوا جميعًا غدًا صباحًا ولنتجمع كلنا ثم نذهب إلى مولد جدنا ونحن نذكر الله، فرد عليه كل الحضور بالمجلس: على الرأس والعين السمع والطاعة، ثم ذهبوا إلى منازلهم، وفى صباح اليوم التالى ذهب الحقير والشيخ الشناوى إلى منزل الشيخ شمس الدين ولكن الشيخ لم يخرج من الحرملك، وأرسل لنا مع أهل البيت القهوة وخبز شعير وبينما كنا نتناول الخبز والقهوة سمعنا أصوات نحيب وعويل من الحرملك، يا لهذا الفزع والجزع وقد خرج علينا الشيخ من الحرم بصعوبة بالغة وقد احمرت عيناه وكان العرق يتصبب منه ألقى علينا السلام فرددنا عليه السلام وقال: ليس هذا ما يدعو إلى الانفعال أو الحيرة فإنى لما دخلت الحمام واغتسلت قلت لهم إنى ذاهب إلى جدى ظنوا أننى سوف أتركهم وأرحل عن الدنيا إلى الآخرة لذا فزعوا وجزعوا، أما نحن الآن فسوف نذهب إلى جدنا ونحتفل بمولده وسوف نصلى مع كل الأحباب صلاة القضاء ثم ابتسم

الشيخ، فقال الشيخ الشناوى: يا سلطاننا إن كل مريديكم وأحبائكم ينتظرون بالخارج بالدفوف والطبول، كما ينتظر كاشف البحيرة مع جنوده بالسلاح، فقال لقد استعد الجميع ويجب علىّ أنا أيضًا أن أستعد بالتقوى وأمر بدخول ثلاثمائة درويش إليه ينشغلوا بالتوحيد والذكر، وكان للشيخ شمس الدين ناموسية فى أحد أركان المنزل دخل فيها وبدأ الذكر وبعد ساعة خرج الشيخ من الناموسية، والله أعلم أن الشيخ قد وصل إلى توجر وهو بتلك الناموسية لأنه عندما قال حى سقطت خيوط الناموسية على رأسه وعلى الفور قام الشيخ الشناوى وخليفته يرفعها من عليه فوجدوا الشيخ قد أَسْلَمَ الروح لربه امتثالاً لقوله: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨] ومن العجب أن الشيخ توفى وهو يبتسم وجبينه ووجنته كحمرة الورد، فصاح كل المريدين وانتقل هذا الصياح إلى الحريم وتجدد المأتم لهم من جديد وأمر بتجهيز ثلاثة مواعين من الماء الساخن والكفن وماء الورد والبخور وجهزوا له كل الأشياء الخاصة بالموتى وقد خرج أهله وعياله وكريمته إلى الخارج، وقام الشيخ الشناوى بإعطاء ألف أقچة التى كانت أمانة عنده من الشيخ شمس الدين إلى ثلاثمائة رجل على حسب الوصية لإسقاط صلاة القضاء عنه، وقام الشيخ الشناوى بتغسيله وكان الحقير يصب الماء عليه وقد أطلق ابن الشيخ الشناوى البخور.

وتم تكفين الشيخ ووضع فى نعشه وسار مع جنازته ما يقرب من ألف شخص من الجنود وهم ينتحبون حتى وصلوا بالجنازة إلى جامع الشيخ أبو الريش وصلى عليه هناك قرابة الأربعين ألف أو الخمسين ألف جندى ووهبوا ثواب الصلاة لروحه، ثم دفن الشيخ الشناوى الشيخ شمس الدين فى فسقية الشيخ أبو الريش، وحتى الآن تفوح الرائحة العطرة من تلك الفسقية فتعطر رءوس العاشقين ولم يذهب كل الزوار إلى أى مكان فى ذلك اليوم بل ظلوا فى الجامع وفنائه وقد قرأوا الختمة الشريفة ثلاثمائة مرة ووهبوا ثوابها لروح شمس الدين كما قام الأهالى وأصحاب الخيرات بطهى الحلوى والفطائر ووزعوها على الزوار وأهل المولد على روح الشيخ شمس الدين، والحمد لله أنه قد ظهرت تلك الكرامات ورآها الحقير وأنه تقابل مع الشيخ قبل وفاته وخدمه، وإنما هذا

من فضل ربى، وفى ذلك اليوم أيضًا شرعت فى قراءة ختمة شريفة على روح الشيخ أبو الريش وانتهيت منها اليوم التالى بعد العصر وكان فى حضور كل الصادقين ووهبنا ثواب الختمة لروحه تقبل الله، رحمة الله عليهم أجمعين.

ولا يوجد حصر ولا حد لمناقب الشيخ أبو الريش، والروح المشتاقة لمعرفة تلك المناقب ترجع إلى طبقات الشعراوى وسترى إلى أى حد كان الشيخ أبو الريش سلطانًا عظيمًا، والشيخ أبو الريش والشيخ إبراهيم الدسوقى والشيخ أحمد الرفاعى من كبار سلاطين الطريق البرهانى، كان الشيخ أبو الريش عاشقًا لله مثل عمر بن الفارض لم يعمل للدنيا مقدار ذرة واحدة، لذا فإن قبورهم ليست مزينة ويوجد بضريح الشيخ أبو الريش باب يطل على الناحية الشمالية.

وبفناء ضريح أبو الريش يوجد ضريح الشيخ عاصم بن الشيخ أبو الريش وله كرامات كثيرة فقد أصبح خليفة صاحب سجادة بعد وفاة جده وبايعه أربعون ألف رجل وكان الشيخ عاصم مرشدًا للطريق، والشيخ عاصم مثل جده قبره ليس مُزَيَّنًا دائمًا هو عبارة عن صندوق مغطى بقماش أخضر وباب هذا الضريح أيضًا يطل ناحية الشمال.

وعلى مسافة ثلاثمائة خطوة فى الجانب الشمالى خارج ضريح أبو الريش يوجد ضريح الشيخ سيد عطية وهو أيضًا سلطان عظيم على الطريقة البرهانية وهو مدفون فى ضريح عالٍ، حوائطه مثل حوائط القلعة، وله كرامات كثيرة.

وتحت ظلال شجرة النخيل الموجودة بالسوق يوجد قبر الشيخ أبو هواث وهو ضريح صغير ولا توجد أى آثار أخرى بجانبه، ولو قمنا بتحديد كل أضرحة الأولياء والصحابة الكرام كل على حدة سوف نكتب كتابًا مطولاً فيه.

ولكننا سنكتفى بذكر أضرحة الأولياء المشهورين وهم الذين قمنا بزيارتهم: أولاً الشيخ محمد الأديب وهو سلطان كبير، وبجامع الجبانة الموجودة بجوار ضريح الشيخ محمد الأديب يوجد ضريح الشيخ السيد أحمد أبو العباس الشاطر قُدّس سره وهو مدفون فى ضريح مقبب، وبجواره يوجد ضريح صغير للحاج محمد السيوفى وهو من الصحابة الكرام وهو رئيس صناع السيوف للرسول ﷺ، وبضريح متصل به يوجد

الشيخ على السقطى وهو خليفة الشيخ سُرَير السَّقطى، وبالقرب منه ضريح الشيخ على الطَّنجى، مسقط رأسه قلعة طنجة ويقال إنه أخبر الأهالى بطنجة أن كفار الأسبان سوف يستولون على القلعة ويقتلون كل من بها لذا جاء الشيخ إلى مصر. وبعد ذلك بعشرة أيام قام كفار أسبانيا بالهجوم على قلعة طنجة وقتلوا كل من بها.

وعلى مقربة منه يوجد ضريح الشيخ ناصر الدين الفاسى وقد أتى هذا الشيخ إلى قاهرة المعز من مدينة فاس بالمغرب، واشترك فى فتح مصر ضد الإخشيديين، ثم انتقل إلى دمنهور وتوفى بها وهو مدفون بجبانتها فى ضريح صغير.

ثم الشيخ الأمير محيى الدين بن السلطان ناصر الدين سلطان مصر، ترك هذا الأمير العرش والمُلك وارتدى عباءة الفناء فى الله وقد عاش فى الجبل الأخضر حتى ألفته الطيور الجارحة والسباع وكل الوحوش الموجودة فى الجبل الأخضر، حيث سكن فى وادى هامون، بعد ذلك ثم أصبح قطبًا وضريحه الآن مزار للخاص والعام، وعلى مقربة منه ضريح الشيخ العجمى وبجانبه ضريح الشيخة السيدة أم الشيخ إسماعيل فى ضريح متصل بضريحها مدفون الشيخ خضر، وبجوارهم ضريح الشيخ برهان الدين.

وكل الأولياء المذكورين فى أفنية الجوامع: أولاً ضريح الشيخ محمد الأنصارى وهو من الصحابة الكرام وضريحه بجوار الباب الأيسر لجامع المنى وهو ضريح صغير، وقد وفد هذا الصحابى سفيرًا من سيدنا أبى بكر إلى ملوك القبط وتوفى بالمدينة ودفن فيها ويوجد تاريخ على مشهد القبر القديم.

وضريح الشيخ أبو السعود الدمنهورى ويقع داخل المدينة على يسار محراب جامع الشيخ الدمنهورى.

وضريح الشيخ مجاهد.

ثم ضريح الشيخ شعبان الواقع بالقرب من سوق الخشب وهو ضريح صغير فى الزاوية اليمنى لجامع الشيخ شعبان والجامع من آثار السلطان قايتباى، ولأن الشيخ شعبان مدفون به سمى على اسمه، إنه سلطان عظيم.

obeikandl.com

ثم ضريح الشيخ أحمد الداودى ويقع على يسار محراب جامع المحكمة بجوار سوق الخفاف إنه سلطان عظيم حتى لو كان هناك حق لشخص عند شخص آخر ولا توجد نية للوفاء بهذا الحق فيهب الاثنان إلى ضريح الشيخ داود ويحلف المدين وهو يطرق باب الضريح بيده بأنه ليس فى ذمته أى دين لهذا الشخص، والحقيقة أنه لو كان هناك أى سارق أو مديون لا يستطيع أن يحلف اليمين ويضرب الباب بيده، بل يعترف على الفور بجريمته، ومشهور فى مدينة دمنهور أنه لو حلف شخص ما بالباطل وتجرأ على طرق الباب فإنه يهلك فى لحظتها، وفى كل سنة يتم إحقاق الحق لآلاف الرجال فى هذا الضريح، فيأتى آلاف الرجال من النواحى والقرى المجاورة لإظهار حقوقهم عند هذا الضريح إنه ضريح عظيم، قُدس سره.

ومزار جامع قرقلر وضريح الشيخ أبو شهبة بالمدينة وعلى مقربة منه ضريح الشيخ صاحب الأنوار الشيخ أبو يعقوب وهو على الطريقة البرهانية وخليفة للشيخ الدسوقى وأحمد الله أننى ذهبت إلى كل تلك الأضرحة ومسحت وجهى بها وقرأت الفاتحة أو حزب وختمة شريفة لكل واحد منهم ورجونا البركة منهم، رحمة الله عليهم أجمعين، وقد أتممنا زيارتها.

وفى اليوم الأول من شهر جمادى الآخرة عام ١٠٨٣هـ ذهبنا لمشاهدة مولد الشيخ أبو الريش ولو أننا كتبنا ما شاهدنا كله فلن يكفينا هنا مجلد آخر، وهو مولد عظيم مثل مولد البدوى والدسوقى والشيخ محمد بن زين بالنهارية، والمولد الأقل منه من حيث التجمع فى دمنهور هو مولد الشيخ شمس الدين، ولا تقام فى هذا المولد احتفالات كبيرة مثل الموالد الأخرى نظرًا لقرب المنطقة من الصحراء ولكن يفد إليه رجال لا يحصى عددهم من البلدان المختلفة من فاس ومراكش وطرابلس والجزائر وإدفو وإسنا وأسوان والسودان، وتحضر قبائل بعلجة وسليمانى وحنارى إلى هذا المولد كما تقوم مئات القبائل الأخرى بجلب البضائع من البلدان المذكورة للبيع والشراء فى هذا المولد، ويمكثون فى صحراء دمنهور بخيامهم، ويجتمع أناس كثيرون ويكونون كالبحر لا يعجز اللسان عن وصف تجمعهم، وتباع هناك مئات الآلاف من أحمال الزيوت والنعاج

والماشية والحملان والصبيان السود وكل جنسية من تلك الأجناس المختلفة لها شكل ولون مختلف عن الآخر فقوم ماى بورنو عيونهم حمراء، وأفنو عيونهم صفراء ولكن بشرتهم تميل إلى الحمرة ومعظم هؤلاء يحضرون تبر الذهب ويشترون قماش الأقمصة، أما أقوام نجه نشكى فعيونهم بيضاء وبشرتهم سمراء جداً، وكان يوجد فى خيامهم رجل كل جسده مغطى بالشعر وقد ذهب الجميع ليشاهدوه، وقد تقدم الحقير وشاهد هذا الرجل، وكانت أسنانه وأنفه مثل أسنان وأنف الكلب كان يبدو وكأنه كلب أصفر اللون، عندما كنا نتكلم كان يبتسم ولم ير الحقير بنى آدم على تلك الهيئة، فسألت عن أهله وهو يعرف لغتهم حيث كان يوجد رجال من الواحات، فأجابوا قائلين وهم يقسمون على ذلك: أن هذا الرجل ابن أحد القرود ويقولون فى ذلك أن والدة هذا الرجل كانت تقوم بتكسير وتقطيع أشجار السندباد فى الجبل فخرج عليها قرد وجامعها وبعد عام ولد هذا الرجل بإذن الله وقد تحير الحقير جداً وقال آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩] وسأل الحقير أيضاً مرة أخرى أيها القوم هل يكون هناك قرد بهذا الحجم فقالوا يوجد قرود فى حجم الحمار فينزلون إلى الطريق من على الجبل ويتعاركون معنا، يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته ولكن كل هؤلاء القوم عرايا ولا توجد عليهم أى سترة سوى سترة بسيطة عند مكان العورة، ولكنهم لو تحركوا تظهر عورتهم إنهم مثل الحيوانات، ومنهم رجال لم يشربوا المياه طوال حياتهم، وكلهم يشربون لبن الإبل ويأكلون خبز الذرة، أما قبائل بهيجة وجنادى والضعفا فيأكلون الخبز الأبيض (القمح) يشتهرون بالجمال فعيونهم مكحلة وكلامهم حسن ولكنهم اللهم عافنا يذهبون إلى سوق البغايا، وتنصب الأسواق فى هذا المولد ويتم البيع والشراء لمدة عشرة أيام بلياليها ثم يقوم الكاشف وكل جنده بالمسير على دقات الدفوف وبذلك يكون قد انتهى المولد ويحل كل الزوار والتجار الخيام ويقومون بزيارة أبو الريش زيارة الوداع ثم يذهب كل شخص إلى قصبته وقريته، وقد قام الحقير أيضاً بزيارة الوداع وأخذ من الكاشف عشرة رجال مسلحين وسرنا بهم إلى اتجاه الغرب لمدة خمس ساعات من دمنهور فى صحراء كبيرة فوصلنا إلى مدينة حوش عيسى القديمة ويطلقون على الحوش

( )[1] لفظ حديث فى اللغة العربية، كانت هذه المدينة قديمًا مدينة عظيمة ولكنها غرقت تحت بحر الإسكندرية فخربت قراها.

والمدينة حاليًا ليست مدينة وفى أراضى البحيرة كاشف يطلقون عليه روم بيه، يُمنح الخلعة من كاشف البحيرة وعنده خمسمائة جندى من الخيالة وحكم هذا الكاشف يمتد حتى سبعين منزلاً أى حتى خليج كبريت ويتحصل لكاشفها ثمانية عشر كيسًا من الأموال المصرية، وقضاء مائة وخمسين أقچة ولكن نظرًا لعدم تحصيل أى شىء منها فى الوقت الحالى ألحقت بقضاء البحيرة، ويتحصل منها سنويًا ألف قرش، تقع مدينة حوش عيسى فى وسط صحراء مستوية، ففى عام ٧٢١ جاء أحد أمراء العربان ويدعى حوت عيسى إلى تلك المنطقة فأعجبه هواءها ومياهها فأسس تلك المدينة.

وكان هذا الأمير يمتلك عشرة آلاف ناقة ومئات الآلاف من الأغنام والجاموس والثيران ودائمًا ما كان يقوم بالاستيلاء على التبر الموجود بالمنطقة، وكان يحج كل عام بألف ناقة وكان يبذل النعم على الحجاج، ونظرًا لهذا فقد عمرت مدينة حوش عيسى وأقبل الناس عليها نظرًا لكثرة إنعام أميرها عليها ويمكن القول بأن أهل المدينة أصبحوا أثرياء ولم يبق بمنازلها أرض خراب، فقد كانت تلك الأرض أرض الإبل والغنم.

وفى عصر ابن عيسى المذكور قام كفار أسبانيا بهدم طريق ترعة الإسكندرية فلم يصل النيل إلى الإسكندرية، وبالتالى مات أهل المدينة من العطش وقد وجد الكفار فى هذا إعانة لهم على إسقاط المدينة تحت وطأتهم؛ فحاصروها. ولكن مئات الآلاف من عربان حوش عيسى هَبوا لنجدة الإسكندرية ووصل المدد إلى القلعة، وألقوا فريقًا من الكفار فى البحر، أما الباقون فقد ركبوا سفنهم وفروا هاربين وفى أثناء إصلاح الترعة كان ابن عيسى يقدم لأهالى الإسكندرية كل يوم ثلاثة جمال محملة بالمياه وبذلك أنقذ أهالى الإسكندرية من هذا العطش والهلاك المحقق، وبذلك ازدانت مدينة حوش عيسى بالعمران بمرور الأيام لقوة حاكمها الأمير عيسى ولكنها أهملت بعد ذلك نظرًا لظلم الكاشفين وكيد العربان وجورهم على الأهالى، وعندما زرنا هذا المكان كان بالمدينة ألفا

(١) بياض فى الأصل.

منزل بالطوب اللبن تقع بين أشجار النخيل وهى بيوت فلاحين ويسكن بها المغاربة، كما يسكنها بعض من قبائل بهيجة وضارى والحضرى، وقد كان يوجد بها قديمًا ألف وخمسمائة محراب للصلاة لم يَبْقَ منها الآن سوى أحد عشر محرابًا فقط ولكن بوسط المدينة يوجد جامع ابن عيسى لا يوجد فى أقاليم مصر مثله لقد شيد على قدر كبير من المهارة والحرفة وتأسس هذا المسجد من الحجارة المنحوتة فى غاية الإبداع كأنها مصنوعة بأيدى أمهر صناع فى حرفة الحفر، ولا يوجد جامع بخلاف هذا، وللجامع مئذنة عالية من ثلاث طوابق، وبالمدينة حمام هو حمام الأمير عيسى لا يوجد نظيره إلا حمام الأمير عثمان فى مدينة منفلوط، وبها خمسون حانوتًا ولكن كل شخص يقوم بالبيع والشراء فى منزله، لذا فكل الحوانيت الموجودة بها ثلاثمائة وستون حانوتًا وخلاصة الكلام أن معظم عمران مدينة حوش عيسى من خيرات الأمير ابن عيسى المذكور، ولا توجد بمدينة حوش عيسى حدائق أو بساتين إلا أشجار النخيل، وكل مياهها مياه آبار لذيذة الطعم لأن كل تلك الآبار بيضاء وتوجد ثلاثة آلاف منزل مبنية بالخوص والتراب والكليم والخيام بين غابات النخيل، كل أهالى تلك المنازل مسلحين ولا يستطيع أشقياء قبائل بهيجة وضارى التغلب عليهم أبدًا فهم قوم فى غاية الشجاعة ولامتلاكهم إبل وغنم بأعداد كبيرة فإنهم يشتغلون بمهنة نسيج الصوف والوبر، والناحية الجنوبية والغربية لهذه المدينة لا يوجد بها عمران ولم تكن عامرة أساسًا، وامتداد تلك الأماكن حتى طرابلس وفاس ومراكش والمغرب صحراء ولكن بالجبل الأخضر توجد بعض الأراضى الموجود بها أشجار، ومياهها وطقسها لطيف لا يمكن وصفه، ويقيم بتلك المناطق آلاف من عربان القبائل.

مناقب المجاذيب

من المجاذيب المشهورين فى مدينة حوش عيسى الشيخ على البشبيشى والشيخة مباركة خاتون وهما شخصان لهما كرامات ويقال أنهم كانوا يشاهدون الشيخة مباركة فى الجزائر وتونس وأنه كلما يذهب الشيخ البشبيشى إلى أى مكان كانت تذهب

الشيخة مباركة إليه إن الخيل لا تستطيع أن تـلحق بها بل أنها كانت تذهب مع الجند فى الحملات.

فى بيان مدينة العقاب

سرنا خمس أيام بلياليها غرب مدينة حوش عيـسى مع تجريدة من جند قبيلتى بهيجة وحنادى فوصلنا إلى مديـنة خاوية، إنها مدينة تثير الدهشة والحيرة بـها آثار كثيرة لأقبية وقباب لا يعـلم عددها إلا الله إنها حقـيقة مدينة العـقاب فكلها بوم وغـربان وفى شدة الشتاء يقيم بها المجاذيب والضعفاء والمغاربة، وهذه المدينة من بناء الملك خربتا بناها بعد الطوفان، ويـقال إن معز الدين مـن ملوك الفاطميـين قام بتخريب المـغرب عام ٣٤٧هـ ويوجد بـأطلالها حاليًا آلاف الأشياء والأحـجار الكريمة، وتـبتعد مديـنة أوجليـه التى يستخرج منها تبر الذهب بمقدار خمسة مـراحل عن مدينة عقاب، ولكن الحقير لم يصل إليها وذلك لأن عربان الحناوى انهزموا ودخلنا مصر مرة أخرى سالمين غانمين وقد شاهد الحقير هـذه المدينة ورجع الحقيـر مع سبعة أو ثمانيـة من فصافة إلى دمنـهور، فى أربع ساعات، وأقمـنا فى قصر الكاشـف وفى اليوم التالى اتجـهنا صوب الشمال مـن مدينة دمنهور مع جنود الفرقـة السابعة وكل أعيان المدينة وكاشف البحيـرة محمد أغا فوصلنا إلى بلد جبل قاسم بك، ومنها إلى بلدة بصطره وهى لمصطفى أغا الدمنهورى ومنها إلى بلد زرقـون، ومنها إلى بـلد زاوية الغزال، ومنـها سرنا ساعـتين فى قرى عامـرة حتى وصلنا إلى بلد الناصرية، وبها مائتان وخمسين منزلاً وجامع ولها قرية عامرة من أوقاف السلطان الناصر، ومكثنا فى هذا المكان مع كل الجنود، وبدأ الجنود والرجال فى إصلاح ترعة الإسـكندرية، وقد ظل الجـند وآلاف الرجال يعمـلون لمدة أسبوع كامـل حتى تم إصلاح الترعة وبدأت مياه النيل تصل إلى مدينة الإسكندرية مرة أخرى، وأقام الكاشف لذلك احتفالات عظيمة حيث ذبح أربعين شاة وخمسة من الإبل وذلك لأن وصول مياه النيل إلى الإسكندرية كان يعنى إحياء بندر مـدينة الإسكندرية وبندر الإسكندرية يحصل سنويًا ثلاثمائة كيس مصرى وإذا تعطل الجمرك فـإنه يؤمر بقتل كاشف البحيرة لذا يؤمر كاشف البحيرة بتعمير تلك الترعة، ويسجـل لتلك النفقات أربعين كيسًا مصريًا سنويًا،

ويتم تسجيل ذلك فى محكمة قصبة فُوَّه، وأول من حفر هذه الترعة الناصرية هو الملك القبطى فلبطر فى عهد إبراهيم عليه السلام وقد تعرض هذا الملك للسيدة سارة مرتين فَشُلّت يده وتاب واستغفر وآمن بسيدنا إبراهيم، وهذه الترعة من إنشاء هذا الملك، وقد شقت تلك الترعة من قرية دراور بأرض البحيرة بالقرب من قصبة فوه الموجودة على ضفاف النيل وتسير الترعة لمسافة منزلين ثم تصل إلى الإسكندرية وهو عمل شاق ليس فى مقدور البشر وتسير السفن فيها منذ ستة أشهر، وبمرور الأيام تعطلت الترعة وردمت فقام السلطان الناصر بحرف ما ردم منها وسير فيها المياه من جديد، لذا يطلقون عليها ترعة الناصرية. وعلى جانبى تلك الترعة يوجد بحر البحيرة، ويجرى النيل المبارك من بينهما وفى بعض الأماكن يزيد تلاطم البحر فتفسد جسور تلك الترعة الأمر الذى يجعلها تحتاج إلى خلق كثيرة لترميمها وتعميرها، عندما قام الملك «فلبطير» بإنشاء تلك الترعة فرشها كلها أولاً عن آخر بالمرمر الخام، ويظهر هذا المرمر حاليًا فى بعض الأماكن. حقًا إن همة الرجال تقلع الجبال، ويوجد خليج يطلقون عليه خليج الإسكندرية، لو لم يتم حفر هذا الخليج كل عام تقوم الأمواج المتلاطمة للبحيرات المرة الموجودة على جانبيه بقطع الجسور وبالتالى تغرق مئات القرى فى ولاية البحيرة، لذا تتم محاسبة كاشف البحيرة عن تطهير هذا الخليج كل عام، وبعد ترميم الترعة قام كاشف البحيرة بمنحنا عشرة آلاف پاره وبراءة نظير خدماتنا، وأرفق معنا عشرة رجال مسلحين، ومنحنا سفينة وجميع اللوازم، وسرنا فى تلك الترعة قاصدين مدينة الإسكندرية. وحاصل القرى والمنازل التى مررنا بها حتى مدينة الإسكندرية، بلد ستتاو وتقع على ضفاف تلك الترعة وبها مائتا منزل وجامع وهى قرى عامرة، ويوجد بها ملتزم فى أراضى البحيرة، وبهذا البلد ضريح الشيخ أبو بكر الشنتاوى وهو ضريح صغير فى فناء الجامع الموجود على ضفاف هذه الترعة، وهو من كبار الأولياء المشهورين، واستكملنا سيرنا فى الترعة فوصلنا إلى بلد برسيق، وهى قرى عامرة بها مائة منزل وجامع وحدائق النخيل ومنها إلى بلد نخل وهى قرى عامرة بها مائتا منزل وبتلك الناحية توجد ترعة الأشرفية. وهى ترعة كبيرة انفصلت عن قرى الرحمانية

الموجودة على ضفاف نهر النيل، وهى من خيرات السلطان الأشرف من سلاطين مصر لذا يطلق عليها الترعة الأشرفية وتروى تلك الترعة مئات القرى فى أراضى البحيرة وتمر بمدينة دمنهور، عبرنا تلك الترعة وسرنا إلى الأمام وتختلط تلك الترعة بترعة الناصرية عند بلد أبو خضر وتسير الترعتان حتى تصلان إلى الإسكندرية، وهما أيضًا من الخيرات العظيمة.

وعلى مقربة من بلد أبو خضر توجد بلد القراوى وهى عامرة للغاية وبها جامع ومن هناك إلى بلد القافلة وهى عبارة عن قرى عامرة بها خمسمائة منزل وجامع وأسفل منها بلد وسوس. وبها أيضاً جامع وثلاثمائة منزل وهى بلدة عامرة وأسفل منها بلد بُرْكه وهى قرى عامرة تضم خمسمائة منزل وجامع. وبها ضريح يعد مزارًا لم نعلم عنه شيئًا ولكننا قرأنا الفاتحة لروحه وعبرنا تلك البلدة وسرنا مع مياه النيل حتى وصلنا إلى البلدة الكبيرة روهب وتقع فى أراضى البحيرة وبها ألف وسبعمائة منزل وجامع سلطانى ومساجد وخان وأسواق ومقهى، ويقيم على ترعة الناصرية أمين للجمرك يُعين من قبل أمين الخوردة وتكون مدة إقامته ستة أشهر وبعدها تجف الترعة وتظل أعمال الجمرك معطلة ستة أشهر أخرى وتأتى كل سنة ألف مركب وسفينة لشراء البضائع من قرية الرويهب.

أوصاف بضاعة بلدة الرُوَيهب

إنها بضاعة من صنع الله القادر على كل شىء الذى لا نظير لصنعه والتى يبقى العقل حيرانًا أمام صنعته عز وجل، من ذلك نبات الغاسول الذى يُنطق خطأ قاسول وهو نبات قصير أصفر اللون ينبت فى صحارى قرية الرويصب وهو نبات ذو مشرط مثل نبات أم غيلان ينبت فى شهر يوليو فيقوم الأهالى بالخروج إلى هذا الوادى، لهذا النبات أوراق مثل مخالب الطيور الجارحة فيقومون بقطف الغاسول من تلك الأوراق، ويستخدمونه فى الاغتسال كالصابون ويقوم الأهالى بصب هذا الغاسول فى أوانى ثم يقطعونه أجزاء صغيرة، ويوجد تراب خاص بتلك القرية يقوم الأهالى بعجن هذا التراب ويقومون بوضع الغاسول فيه ويجعلونه كالخميرة، ثم يصنعونه على أشكال دائرية ويتركونه فى الشمس حتى يجف ثم بعد ذلك يأتى التجار ويشترون منه آلاف من

أحمال الإبل ويؤخذ منه إلى إسنا وأسوان وبلاد العرب بالسفن حيث يستعمله معظم الأهالى فى الاغتسال فإذا ما وضع هذا الغاسول فى إناء وأضيف إليه الماء يصبح كالصابون لذا يطلقون عليه غاسول من لفظ الاغتسال.

وللغاسول خاصية أخرى كبرى بخلاف الاغتسال وهى تنظيف الثياب.

والميزة الثانية للغاسول هى: أنه يمكن حرقه وأخذ الرماد الذى يخرج منه ويتم بيعه أيضًا حيث يقوم الأهالى بأخذ العشب إلى مكان مثل الجبل وينثرونه عليه ثم يحرقونه بالنار ويأخذون الرماد الذى ينتج منه ويجمعونه على بعضه البعض مثل الكرة ثم يقومون بنثره أكوام أكوام إما فى المخازن أو على الأرض ثم يأتى التجار ويشترون منه بالقنطار حيث يباع منه مئات الآلاف من القناطير ويذهبون به إلى كل ديار مصر حيث يقوم التجار بطحنه فى المطاحن ثم يشعلون النار عليه مع وضع مادة النطرون عليه ويصنعون منه الزجاج والقناديل والزجاجات، وزجاج نبات الغاسول من أجود أنواع الزجاج من حيث الشفافية والجودة.

والميزة الثالثة للغاسول هى: استخدامه فى استخراج الذهب حيث يقوم التجار القادمون من بلاد الفرنجة بالذهاب إلى الرويصب ويشترون رماد نبات الغاسول ويذهبون به إلى بلادهم وعندما كان الحقير فى ألمانيا سأل مارجلين أمين دَارِ سَكٍّ الذهب بمدينة انكروس عن هذا الغبار فأجاب مارجلين: إنه غبار نبات يسمى الغاسول ينبت فى أراضى البحيرة من ديار مصر نحضره إلى هنا ونستخرج منه المياه الصافية ونستخرج منها الذهب، بعد ذلك نصفيه ونحصل منه على ماء الذهب الخالصة، حقًا إنه غبار ثقيل مثل الذهب.

والميزة الرابعة للغاسول: إنك لو أطعمت تلك النباتات للأغنام فإن أسنانها تصبح مثل الذهب.

والميزة الخامسة: أن تجار الفرنجة يأتون إلى الإسكندرية عندما يكون هذا النبات أخضر ويشترونه ويرسلونه إلى بلاد الفرنجة حيث يبيعونه إلى الساعاتى وصانع الأشياء الثمينة حيث يقومون بغلى الأشياء التى يستخدمونها فى صناعاتهم فى الكوكورد (الكبريت) ونبات الغاسول يطلون به الذهب وتزين به الساعات والتحف التى تصنع من الذهب والفضة.

الميزة السادسة وهى: خاصية تخص قرية الرويصب الموجود بها الشيخ الشاذلى باليمن وقد سمع الشيخ سيد عيسى أن الله قد منح الشيخ الشاذلى باليمن نبات القهوة فدعا الشيخ سيد الله بأن يمنحه هو الآخر نباتاً يدفع عنه الجوع ويقويه على العبادة وقد استجاب الله لدعائه حيث أنبت فى تلك الصحراء نبات الغاسول وملأ النبات كُلَّ الأراضى الصحراوية هناك وكانت رائحته تفوح فتعطر الرأس، وقد عاش الشيخ عيسى بعد ذلك مائة سنة كان يعيش فيها على نبات الغاسول، وكان قد عاش قبل ذلك مائة وخمس سنوات وبذلك يكون الشيخ قد عمّر مائتين وخمس سنوات، وقد فتح الشيخ عيسى طرابلس الشام مع السلطان برقوق ثم عاد إلى الرويصب مسقط رأسه وتوفى بها وقد أنشأ السلطان برقوق على قبره ضريحًا وتكية ويوجد الآن فى تكيته ما يزيد على مائتى مريد، كلهم يتعيشون على نبات الغاسول حيث يقومون بتخفيفه وطحنه ثم يصنعون منه الخبز وقد تناول الحقير منه قطعة خبز تبركًا، إنه خبز لذيذ الطعم يمنع الجوع.

والميزة السابعة: وهى خاصة ببذور الغاسول إذا ما أكلت فإنها تمنع الرشح والدم كما أنها مفيدة لمرض الذخير، ولكن خبزه أسمر وله طعم القصرة، ولم يتناول الشيخ عيسى طوال مائة سنة غير هذا النبات وله العديد من الكرامات إنه سلطان عظيم، كما يأكل أغلب أهالى هذه القرية هذا النبات حين الضرورة.

وحاصل الكلام أنه يتحصل لمصر جمرك كبير من هذا النبات، ولا يوجد هذا النبات فى أى مكان على وجه الأرض سوى فى البحيرة، وقد سرنا فى تلك المنطقة وشاهدنا فيها كل عجيب وغريب، وسرنا مع الترعة فوصلنا إلى لوقون وبركة وهما قرى عامرة بهما مائة منزل وجامع، ومنها إلى كربون ومنها إلى معلق ومنها إلى عكريش البستلقون البيضة وقد كانت هذه البلدة مدينة عظيمة فى عهد القبابطة وآثارهم باقية بها حاليًا لا يمكن التعبير عنها باللسان، خرجنا منها وسرنا مع الترعة فوصلنا إلى الجنان وقد سميت ببلد الجنان لكثرة وجود الحدائق والبساتين بها قديمًا، وحاليًا هى عبارة عن قرى عامرة بها ثلاثمائة منزل وحدائق النخيل تزينها، وكل القرى التى ذكرت تقع فى أراضى البحيرة على ضفتى ترعة الناصرية لمسافة عشر ساعات.

أوصاف البلد القديم دار الكهنة والحصن الحصين
وسد الإسكندر المتين الخاتم المجوهر
قلعة الإسكندرية

مدينة عظيمة وقيمة وقد حرر آلاف المؤرخون أوصاف قلعة الإسكندرية التى تشبه سد يأجوج، ولكن تواريخ القبابطة هى أوثق ما كتب فيها، فقد منح الله العلم لإدريس بعد هبوط آدم إلى الأرض، والقبط من ذلك الوقت وحتى يومنا هذا يحررون الوقائع والأحداث، وبالرغم من أنهم كفار إلا أنهم لم يصدر عنهم أكاذيب أو إرهاصات فى كل الأزمنة لذا فإن كتب تاريخهم هى أوثق التواريخ التى يعتمد عليها، وقد أتى الخليفة المأمون العباسى إلى مصر لشغفه بالتاريخ، ونقب فى جبال الأهرام وأخرج منها آلاف القطع من كتاب إدريس وكتاب دانيال وترجمها إلى العربية، كما قام بترجمة مئات التواريخ القبطية إلى اللغة العربية، وتذكر معظم تلك التواريخ أن مدينة الإسكندرية هذه أول الأمر بنيت بعد الطوفان حيث كان سيدنا نوح يميل إلى بيظر بن حام من أبنائه فدعا له بالكثرة والملك فتقبل الله دعاء نوح وأنعم على بيظر بالذرية الكثيرة وملكه ملك مصر، وقام ببناء مدينة الإسكندرية، واتخذ مدينة منوف عاصمة له، وكانت الإسكندرية فى تلك الأوقات تسمى رقودة، والألمان حتى الآن يقولون على الإسكندرية رقودة أما فى اللغة اليونانية فيطلقون عليها الكساندره ويقولون على بيظر أبو القبابطة لأن معظم القبط من نسله، فقد كان له ثلاثون ولداً أكبرهم مصرايم، كان مصرايم هذا ملكًا على مصر من العريش وحتى أسوان والسودان، ثم توفى بيظر وهو أول من توفى فى مصر بعد الطوفان ودفنوه فى الهرم بجوار الملك هرمس وهو أيشا أول من دفن فى مصر بعد الطوفان وقد استقل مصرايم بملك مصر بعد وفاة والده وزاد من عمران مدينة الإسكندرية التى كانت من منشآت والده لحبه لطقسها ومائها وعندما أصبحت زلتاسنيث مأموم ملكة على مصر، قدم العمالقة إلى مصر واستولوا عليها والعمالقة من أولاد حام بن نوح ولكنهم نسل بليد، قاموا بتخريب مملكة القبط وعلى النقيض قاموا بتوسعة وإعمار مدينة الإسكندرية، وهم الذين أنشأوا الأحجار الكبيرة فى الإسكندرية

نظرًا لأنهم كانوا ضخام الجثة، وقد خلفهم فى بناء الإسكندرية يعمر بن شداد وقد أنشأ يعمر المبانى بالأحجار القوية الكبيرة لذا يقولون بناء شدادى على المبانى القوية، ثم بعد أن أتى جارود المؤتفكى وهو بعد عهد سليمان عليه السلام أنشأ أعمدة كثيرة فى كل طرقات الإسكندرية ولا تزال آثار تلك الأعمدة والمغارات ظاهرة للعيان، وقد حكمت مصر بعد ذلك الملكة دلوكة بنت زيباك وكانت قبل فرعون موسى بعشرين عامًا، وقد اتخذت تلك الملكة منوف عاصمة لها، وقد عمرت مدينة الإسكندرية أيضًا لأنها كانت تنتقل إليها لتغير الجو، وآثارها من على بعد مائة ميل فى البحر.

وطبقًا لما ذكره المؤرخ العالم محمد بن إسحاق فإن الإسكندر الأكبر قام بتعمير مدينة الإسكندرية ووسع فيها وعمرها وزينها بالعلامات والطلاسم قبل ميلاد النبى ﷺ بثمانمائة واثنين وثمانين سنة، وقد أصبحت الإسكندرية فى عهده مدينة عظيمة لَمْ يُرَ مثلها على وجه الأرض، ويتفق هذا الرأى مع رأى كل الأمم وأن الإسكندر الأكبر المذكور هو الإسكندر ذو القرنين ونسبه هو الإسكندر بن بنطى بن نعمان بن تارخ بن يافث بن نوح عليه السلام وعلى قول آخر هو الإسكندر بن داراب بن بهمن بن اسفنديار، ويقال والله أعلم أن الخضر عليه السلام كان من جند الإسكندر حتى إنه ذهب معه ليأجوج ومأجوج ثم ذهب معه إلى الإسكندرية والمكان الذى التقى فيه الخضر مع سيدنا موسى هو مكان التقاء النيل المبارك بالبحر المتوسط بالقرب من الإسكندرية والآية الشريفة: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨] خير دليل على المكان الذى افترق فيه الخضر عن موسى، ويطلقون على المكان الذى افترق فيه موسى عن الخضر محلة مرج البحرين وهى مضيق بندر رشيد وهو مكان اختلاط النيل بالبحر، والمسافة بين هذا المكان والإسكندرية برًا اثنا عشر ساعة وبحرًا ( )[1] ميل، أما الإسكندرية فكان ملك على اليونانيين وقد عمر ألف سنة وعلى قول ستمائة سنة وإنه حكم من القاف إلى القاف وأقام سد يأجوج ومأجوج،

(١) بياض فى الأصل.

وقيل إنه نبى وهو ابن الملك مرزبا من أبناء يافث اسمه مرزبا ولقبه الإسكندر، وعلى قول آخر أنه بنى الإسكندرية بعد أن قام بخت النصر بتخريب مدينة منوف بمائة وعشرين سنة وكان اسمه الإسكندر بن فيش المخزونى، وقد سميت الإسكندرية على اسمه ونظرًا لوجود أربعة أشخاص باسم الإسكندر فتوجد اختلافات كثيرة بسبب ذلك، كما أن الأربعة عَمروا الإسكندرية ومرقوم على أبراج الإسكندرية تاريخ تعمير كل واحد منهم ويقال أن الإسكندر توفى عام ٨٨١ قبل ميلاد النبى ﷺ وهو عائد من بناء سد يأجوج ومأجوج وكانت وفاته فى ديار العجم، ونقل نعشه إلى الإسكندرية وهو الآن مدفون بدير مرقاب، والتواريخ اليونانية أيضًا من التواريخ المعتمدة، وذلك لأنهم دائمًا ما يهتمون بأمور الدنيا، وعلى قول اليونانيين أن الإسكندر هو بن الحكيم فيقلوس وقد ولد فى مدينة قوله بالقرب من سلانيك قبل هجرة النبى بثلاثمائة وخمس سنوات، وأنه أصبح ملكًا على الروم واستطاع أن يسخر لسلطانه الروم والعجم والعرب والهند والسند وقد استطاع أن يستولى أيضًا على إيران بعد هزيمة شاه العجم دارا على يديه فى منطقة قره دره بالقرب من قلعة نصيبين المجاورة لبغداد، وأمر الإسكندر بإسكان الشاه دارا وأهله وعياله فى سهول داراهيه بسنجق منتشه، وقد توجه الإسكندر بعد ذلك بألفى سفينة إلى الإسكندرية واستطاع الإستيلاء عليها من يد الملك سوريد من ملوك القبابطة وسار إلى مصر واستولى عليها أيضًا، وخضع القبط لطائفة العربان الأشرار لسلطانه وكان العربان يميلون له عن القبط، وقد أوقف الإسكندر مصر لدير ياصومنيه الموجود بالقسطنطينية، فقد كان يتم جمع ستة عشر مليون قطعة ذهبية سنويًا من مصر وذهب إلى الرهبان فى أيا صوفيا فى عهد عمر بن الخطاب كانت القُدس وطرابلس وصيدا وبيروت وعكا والرملة وغزة وتيه ودمياط ورشيد والإسكندرية وكل مصر تحت قبضة كفار الروم الإفرنج، بعد ذلك قام الملك الضال نقلديانوس أوتقيانوس بالقضاء على كل المسيحيين الموجودين فى مصر والشام وحلب وإنطاكية وخرب آلاف الكنائس وهذا الملك الضال الجبار هو آخر شخص من عباد الأصنام من قياصر الروم.

بعد ذلك أتى إلى الإسكندرية بالمال الذى غنمه من النصارى وقتله وزيره ويدعى جيلة وبذلك أصبحت الإسكندرية فى يديه ثم استولى على مصر وسار منها إلى بلاد العجم حيث تحارب مع شاه العجم شابور حربًا عظيمة انهزم فيها شابور وانتقلت كل خزائنه وأمواله إلى تيقانوس الذى نقلها إلى الإسكندرية وعمرها، استمر حكم تيقانوس عشرين عامًا، وقد رأى جزاء ما اقترفه من مظالم، فقد تناثر لحمه وأسنانه بدون سبب، ولما هلك تولى بعده ابنه دانيال، وعندما هلك هو الآخر تولى الملك قسطنطين الأكبر وشاء المولى القدير أن يعلو شأن دين الله فقد فتح النبى مكة سنة ٨ هجرية وقد سير خالد بن الوليد فى عشرين ألف جندى من الصحابة الكرام إلى الشام إبان حكم القيصر حزقيل وبأمر الله استطاع أن يُسخر الشام له، وقد ذهبت البشرى إلى رسول الله فقام بإرسال عشرة آلاف جندى إليهم وساروا إلى القُدس وكانت حينئذ فى يد الكفار والروم، وعندما وصلت الجنود إلى الشام كان عمرو بن العاص فى القُدس يشتغل بالتجارة، وبينما كان عمرو يستريح تحت ظل شجرة ظهر ثعبان فجأة وكان ثعبانًا ضخمًا وكان هناك رجل ينام بجانب عمرو هجم الثعبان عليه فقام عمرو فقتل الثعبان بفرع شجرة، فقال له الرجل لماذا قتلت الثعبان؟ فقال عمرو: لقد كاد أن يقتلك وأنت نائم وعندما رأيته قتلته وأيقظتك من النوم، فَهَمّ الرجل بتقبيل يد وقدم عمرو بن العاص، وسأله الرجل: من أى البلاد أنت؟ فقال له: أنا مكّى أتيت للقُدس للتجارة، وجميع أوقاتى مع ناقتى الصغيرة، فقال له الرجل: أنا أسكن فى الإسكندرية فى ديار مصر وقد أتيت للقُدس للزيارة مع الخواجة شماس والحمد لله أنك أنقذتنى من شر هذا الثعبان سوف أمنحك أموالاً وفيرة لذلك، لتذهب معى إلى الإسكندرية وسوف أمنحك ألفين عملة ذهبية وخيام كبيرة وصغيرة وسوف تعود إلى بلادك من مصر.

وقد ذهب عمرو إلى الإسكندرية بعد عشرة أيام ونزل ضيفًا عند الخواجة شماس ولم يخلف الخواجة وعده مع عمرو فقد منحه عدة لبدات فاخرة، وشاهد عمرو المدينة مع الخواجة شماس وبينما كان يسير فى شوارع المدينة معه كان بعض الأهالى يلعبون لعبة

الكرة وقد جرت حكمة الخالق أن تسقط الكرة على رأس عمرو وتستقر عليه، وقد تعجب كل الحاضرين من ذلك جدًا، فقد كان أهالى الإسكندرية يؤمنون بتقليد قديم عندهم وهو أنه أثناء لعب تلك اللعبة من تستقر على رأسه تلك الكرة يصبح ملكًا على الإسكندرية، فابتسم الأهالى وقالوا: هل يكون هذا العربى المكى ملكًا على الإسكندرية، وعلى الفور قام شماس بأخذ عمرو إلى منزله وبدأ يبحث عن طالع عمرو بعلم الإسطرلاب فوجد أن عمرو سيكون ملكًا على مصر، وفى النهاية أكرمه بأن أعطى له الأموال الكثيرة ومنحه عشرة من الإبل محملة بالمتاع وودعه إلى الحجاز، وصل عمرو إلى مكة بعد أن قطع المنازل وطوى المراحل والتقى بأهله هناك وأعطى رسول الله الهدايا التى معه وأعلن إسلامه وقد ذهب عمرو إلى رسول الله وقد بشره الرسول بأنه سيكون أحد العمرين الذين سيفتحوا مصر والإسكندرية، وأخذ عمرو يذكر للرسول والصحابة مدح مدينة الإسكندرية وجمال مائها وهوائها، وقد ذكر الرسول فى عدة أحاديث له ترغيبًا للصحابة فى فتح مصر والقُدس والإسكندرية، وقد قام الرسول ﷺ بإرسال الرسائل إلى المقوقس ملك مصر مع الصحابى أبو حاطب بن أبى بلتعة وذلك بعد غزوة الحديبية عام ٦ هـ، ودعا الرسول ﷺ المقوقس إلى دين الإسلام، ويُقال إن المقوقس امتثل للدعوة وأعلن إسلامه، وقد أرسل المقوقس رسالة إلى النبى ﷺ مع ذى النون المصرى وأرسل مع الرسالة البغلة دلدل، والسيف ذو الفقار، والجارية مارية، وثلاث جوارٍ من القبط، وعندما ذهب ذو النون إلى مكة وشاهد الرسول ﷺ أعلن إسلامه وأصبح طبيب النبى ﷺ .

فى بيان فتح قلعة الإسكندرية

بناء على قول المؤرخين أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قام بفتح القُدس الشريف من يد الروم الكفار فى سنة ١٨ هجرية، ثم قام بعد ذلك بإرسال أربعة آلاف وخمسمائة فارس وأربعة آلاف جندى مشاة بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر، فقطع ذلك الجيش المنازل وطووا المراحل حتى وصلوا إلى المنطقة الواقعة بين رفح والعريش

فوصلهم هناك رسالة من عمر بن الخطاب يقول لهم فيها: «إذا كنتم قد دخلتم أرض مصر فسيروا على بركة الله وإن لم تكونوا قد وصلتم بعد فعودوا حتى تلاقوا الخوارج فى عمان» وعلى الفور قام عمرو بن العاص بسؤال الأهالى هل هذه المدينة ـ يقصد العريش ـ من أرض مصر، فقالوا نعم، فأرسل عمرو رسالة إلى ابن الخطاب يقول له فيها أنهم وصلوا أرض مصر وأنهم يعتزمون فتحها، وقام عمرو بن العاص بفتح عدة قلاع ثم حاصر قلعة الإسكندرية واستمر الحصار تسعة أشهر كانت حربًا عظيمة، وعندما توفى الملك حزقيل فى عام ١٩هـ وجد الكفار أنفسهم محاصرون فى القلعة من ناحية البحر فأرسلوا الرسائل إلى الروم يستنجدون بهم فى تلك اللحظة كان جنود الإسلام يدخلون القلعة من الأماكن التى تهدمت من أسوارها بفعل المنجنيق، وتم فتح تلك القلعة الحصينة يوم الجمعة من شهر المحرم عام ٢٠هـ وكانت الغنائم تنقل بالإبل فقد كان نصيب كل جندى أربعين ألف عملة ذهبية أما الأسرى وسائر الغنائم الأخرى فلم يكن يعلم حسابها إلا الله، وقد أرسل عمرو بن العاص الرسائل إلى عمر بن الخطاب بالمدينة يبشره بهذا الفتح العظيم، فقام عمر بن الخطاب بإرسال عشرين ألف جندى إلى عمرو مددًا له وقام عمرو بحصار مصر القديمة وقد ذكر ذلك بالتفصيل قبل ذلك.

فى بيان سبب دمار منارة الإسكندرية

دخلت الإسكندرية تحت حكم ملوك كثيرين، ثم دخلت الحكم الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب وآلت من بعد الخلفاء الراشدين إلى الأمويين وكانت الإسكندرية فى عهدهم فى غاية العمران فقد أصبحت كل الأمم المسيحية فى ذلك الوقت ضعيفة لضعف ملوكهم وتكالبهم على الدنيا وحرصهم عليها، لذا فتح الأمويون بلدانًا كثيرة، حتى أنهم أرسلوا الجيوش للقسطنطينية وأسبانيا وتسنى لهم فتح غالاطة فى استانبول ورومانيا وأسبانيا، إلا أن آخر ملوك الكفار سلك طريق الحيلة ضد عبد الملك بن مروان فقد أرسل هذا الملك رسالة إلى الشام إلى عبد الملك مع سفير من سفرائه، وبينما كان

عبد الملك يقرأ الرسالة أعلن هذا السفير إسلامه ورفع يده بالشهادة. وأصبح من المقبولين المحببين لدى عبد الملك وكان لا يترك عبد الملك أبدًا، وذات يوم قال هذا السفير لعبد الملك بن مروان إن مدينة الإسكندرية مدينة عظيمة وبها كنوز كثيرة لا يمكن وصفها فقد حكمها مئات السلاطين وأقام فيها آلاف الكهنة الذين كانوا يعلمون شتى علوم الكهانة ودفنوا الكنوز بالطلاسم، فلو أنك اعتمدت علىّ بما أعلمه فسوف أستخرج تلك الكنوز وقد ذكر له أنه بتلك الكنوز الكثيرة يمكنه فتح البلدان ويصبح أعظم سلاطين الدنيا.

كان عبد الملك بن مروان طماعًا للغاية، كان لا يعلم أنه بهذا يُسلم مدينة الإسكندرية ليد الكفار لأنه لم يكن يعرف شيئًا فى فن الحيلة، فقد اعتمد على إسلام هذا السفير الأسبانى وأعطاه ألف رجل ليذهب إلى الإسكندرية، وعندما ذهب إلى هناك قام بهدم منارة الإسكندرية وأخذ مرآة الإسكندرية التى كانت طلسمًا عظيمًا من آثار الإسكندر موضوعة بالماء إذا ما دخلت أى سفينة من سفن الأعداء إلى ميناء الإسكندرية فإنها تحترق من تلك المرآة، وأساس هذه المرآة لا يزال موجودًا وظاهرًا عند مضيق القليون الذى يطلقون عليه شاطئ القرد الصغير.

ولوقوع هذا الميناء فى مكان معاكس فإن أى سفينة تضل الطريق وتصل إليه تتدمر تمامًا، ولو لزم الذهاب خلف القلعة يجب الاحتراس جدًا، بعد ذلك قام هذا اللعين باستخراج أربعين مليون عملة من المنار والخلاصة أنه خلال أربعين يومًا استخرج مئات الكنوز المدفونة، وملأ سفينته بتلك الخزائن وركب هو وجنوده وتركوا الإسكندرية خرابًا وفروا هاربين إلى ديار أسبانيا.

وقد وصل هذا الخبر إلى عبد الملك بن مروان فى الشام، فحزن حزنًا شديدًا وأخذ يلوم نفسه على ذلك، وأصدر الفرمانات بترميم وتعمير الأماكن التى هُدمت فى مدينة الإسكندرية وأنفق على ذلك الأموال الكثيرة، وبالرغم مما فعله الأعداء جعل عبد الملك بن مروان مدينة الإسكندرية أحسن مما كانت.

ولكن مع الأسف لم يكن موجود بها آثار الإسكندر أو طلاسم دلوكة أو علامات سوريد أو كنوز مصرايم ولم يعد هناك أثر لمرآة الإسكندر، واستمر الحال على ذلك ثلاث سنوات، وفى السنة الرابعة تمكن هذا السفير اللعين من جمع كل الكفار وخرج من أسبانيا بثلاثمائة ألف جندى وسفن لا تحصى قاصدًا مدينة الإسكندرية ونزلوا بها واستولوا على قلعة الإسكندرية وأقاموا بها سنة ونهبوا بقية الكنوز التى كانوا قد استولوا عليها قبل ذلك، وملكوا بذلك أموالاً لا تحصى، وعندما تمكن من ذلك أمر بتحميل كل الكنوز والأموال على السفن بعد أن هدم كل الآثار العجيبة والطلاسم الغريبة الموجودة فى الإسكندرية وفر هاربًا بالسفن إلى أسبانيا وقام بنهب كل الأماكن التى كانت فى طريقه إلى أسبانيا.

وقد عمرت أسبانيا بهذا المال، ويطلقون على المدينة الكبيرة هناك المدينة الكبرى ويطلقون اسم قرطبه وطنجه على مدينتين تقعان فى المغرب، وقد عُمرت تلك المدن على أطلال مدينة الإسكندرية أى أن عمرانها كان على حساب خراب مدينة الإسكندرية، أما الآن فتوجد بالإسكندرية آلاف العلامات والآثار الظاهرة التى تدعو للعبرة، وعندما دخل عبد الملك بن مروان مدينة الإسكندرية هذه المرة أعلن أنها ستكون مدينة العرش لمدة سبع سنوات، وأعلن أنه اعتزم الانتقام من الأعداء، وفى غضون سنة جمع جنده وكانوا فى كثرة مثل البحر وسار بهم فى ألفى سفينة شراعية إلى أسبانيا وقام بفتح المدينة الكبرى بها وفتح مدينتى قرطبة وطنجة بالمغرب ومئات المدن الأخرى وغنم من الأموال الذهبية ثلاثة آلاف صندوق وبنى منها جامع بنى أمية فى مدينة الإسكندرية والشام الشريف وهو يشبه الجنة.

والطائفة المسلمة الموجودة بأسبانيا حاليًا هم أبناء جنود عبد الملك، كما فتح عبد الملك مدينة القسطنطينية بهؤلاء الجند وتصالح مع أهلها على أن يدفعوا خراجًا سنويًا يقدر بخمسمائة ألف قطعة ذهبية كل عام، ودخل جند الإسلام مدينة الإسكندرية سالمين غانمين بعد أن انتقموا من الكفار الظالمين، واستقر عبد الملك وسائر جند الإسلام سبع

سنوات كاملة بمدينة الإسكندرية، وبعد أن آلت الإسكندرية إلى عدد من الملوك استولى عليها الكفار فى خلافة الظاهر بيبرس، لكنه استخلصها منهم، وكم من مرة وهبها الله لعدد من الملوك ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فهذا يأخذها وذاك تؤخذ منه، وذلك ينهزم، والعقل قاصر وحائر أمام ما يجرى، الله سبحانه وتعالى الفاعل المختار، ولا يسأل عما يفعل، هذا ما جرت عليه إرادته الأزلية تعالى شأنه وعم نواله ولا إله غيره:

كم من عمل التوى ... وكم من معوج استوى

إنه العجب العجاب ... والبناء برهان ذلك

فى عام ٥٦٢ هجرى حينما كان المتقى خليفة للعباسيين تغلب عضد الدولة الفاطمى على قلعة الإسكندرية، أما الخليفة المتقى فَسَيَّر إليه جندًا تحت إمرة أسد الدين شيركوه، وأمَّر ابن عم شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيوب على جيوش قصدت الإسكندرية، فاحتشد جيش مصر والشام فى موضع واحد واستردوا الإسكندرية من يدى عضد الدولة صلحًا فزفوا بذلك البشرى إلى نور الدين فى دمشق، وأصبح صلاح الدين الأيوبى حاكم الإسكندرية، وفى العام نفسه اتحد عضد الدولة مع الفرنْجة وضرب الحصار على صلاح الدين فى الإسكندرية، وشاور وزيره فى الصلح مع صلاح الدين على أن يدفع لصلاح الدين خمسين ألف دينار ذهبًا، فأعطى صلاح الدين الإسكندرية لعضد الدولة، كما أعطى عضد الدولة الفرنجة الذين قدَّموا إليه المدد نصف الإسكندرية، وفى هذا العام تم استيلاء الفرنجة على مصر، وإلى عام ٥٦٣ هـ ظلت مصر فى حوزة الفرنجة.

واتَّصل السلطان الغورى بالشاه إسماعيل الصفوى فأرسل إليه الغورى مددًا قوامه اثنا عشر ألف جندى من المُشَاة، وفى وادى (جلردر)[1] لاقى السلطان سليم بهذا العسكر فكانت الغلبة فى الوهلة الأولى لعسكر العجم. وبينما كانت الدائرة تدور على العثمانيين، أطلق إيَاس باشا وهو قائد الانكشارية ثلاثمائة مدفع دفعة واحدة وأعمل العثمانيون السيف فى العجم.

وبعد أن حمى وطيس المعركة سبع ساعات تعلق الشاه إسماعيل بأذيال الفرار وفى معيته سبع رجال ونهب العثمانيون ما فى الخزينة من المال، ووقعت تاجلى خاتون زوجة الشاه إسماعبل فى الأسر، وقد قدموها أمانة إلى جعفر چلبى، ولَمَّا رأى السلطان سليم الجند المصريين مجندلين فى سهل جلدر قال: (بسم الله النية على محاربة الغورى)، وعاد منصورًا مظفرًا من جلدر. وانطلاقه إلى قيصرية، بعث جندًا تحت إمرة فرهاد باشا إلى علاء الدولة حاكم مَرْعَش وهو من أولاد ذو القدر، فواجهه فحشد علاء الدولة مائة رجل من التركمان واحتدمت المعركة بين الفريقين سبع ساعات ولحقت الهزيمة بعلاء الدولة، وقدم الغنائم إلى السلطان سليم وقد تدحرجت أمام باب القصر كما تدحرج الكرات إذا ضربت بالصولجان فأرسلوا رءوس أبناء علاء الدولة وغيرهم إلى السلطان الغورى فى مصر مع رسالة جاء فيها: (نحن جند الإسلام نجاهد فى سبيل الله وقد رأينا وجوب القضاء المبرم على علاء الدولة حاكم مرعش الذى كان يقطع الطريق ويسلب وينهب، ولقد عملنا بالآية الكريمة: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. ولقد تخلص العباد من شرهم، وأن معونتك للقزل باش[2] لا يليق بمسلم، وعلى ذلك قامت الحجة فى المذاهب الأربعة ولدينا الفتوى وسوف ندخل مصر محاربين فى الربيع).

---

(١) وهو ما يعرف باسم چالديران.

(٣) القزل باش: معناها أحمر الرأس. وهو اسم يطلقه السنيون عمومًا على الشيعة من العثمانيين فى الأناضول هم وطائفة من التركمان والبدو، وكانوا يلبسون حمر القلانس وكانت عشائرهم على المذهب الشيعى. (بتصرف واختصار) معجم الدولة العثمانية ص١١١.

وفى عام ٩٢١ من القسطنطينية البلد الطيب خرج الجيش العثمانى إلى اسكودار بعد طى المنازل والمراحل، بلغ سهل مرج دابق على مقربة من حلب حيث حارب جالوت داود ـ عليه السلام ـ وانهزم جالوت، ونزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ولحق السلطان سليم بثمانين ألف مقاتل بجيش الغورى الذى انهزم أمامه وفرّ الغورى إلى حلب ثم إلى دمشق وبعدها إلى مصر، ودخل سليم ظافرًا إلى دمشق، وقضى الشتاء فيها، وفى الربيع انطلق إلى مصر وعبر بجيشه وادى أمّ الحسن وغلب على مدينة بلبيس، وفى كمين أعدّه الغورى وفى جبال عباس انقض الغورى على جيش سليم بغتة فى السحر، ودارت المعركة إلى وقت غروب الشمس، وأسفرت المعركة فى النهاية عن قتل رءوس عسكر الغورى، ووجدت جثة الغورى بلا رأس على سجادة وقالوا إن الغورى زايل دار الغرور إلى دار بوار.

* خلاصة القول أن سليم قد بلغنا به غايته على وجه الإيجاز فيما يختص بفتح السلطان سليم لمصر ولقد تم له الفتح لمصر بعد أن خاض ستين معركة، وعين خيره بك واليًا لمصر وهو الذى استوزره الغورى من قبل، كما عين كمال زاده باشا قاضيًا للعسكر، وأجرى فى النيل ألف سفينة وبهذه السفن بلغ مدينة رشيد وبعد ذلك ضرب الحصار على قلعة الإسكندرية برًا وبحرًا، أما ما كان فى القلعة من جند الشراكسة فطلبوا الأمان وآثروا النجاة وقدموا مفاتيح القلعة إلى السلطان سليم، وتم له هذا الفتح عام ٩٢٣هـ وجعل سليم مصر ولاية ذات إقليمين ومنح إقليمًا لقبطان بحريته حسام باشا، وأمره بأن يحافظ على الموانى المصرية بأربعة سفن حربية وأمر أن تقدم كل قرية كيسين فى كل شهر فى الديوان، وقد حكم القبطان حسام باشا مصر، وفى ميناء الإسكندرية سفينتان حربيتان له، وكان على كل سفينة ترسو فى ميناء الإسكندرية وأبو قير، والإسكندرية القديمة أن تدفع دينارًا ذهبيًا وكان يتحصل من البلاد ثلاثون كيسًا، ولم يكن فى الأقاليم تيمار[1] ولا زعامات[2] ومن قبل وزير مصر رفيع المنزلة،

(١) أرض زراعية كان سلاطين العثمانيين يمنحونها لمن يتعهدون بتقديم عدد من الفرسان للدولة عند قيام الحرب، وذلك حسب ما تغل هذه الأرض.

(٢) الزعامت: أرض زراعية كانت تقطعها الدولة للمحاربين، هى أكبر من التيمار.

وكان يتولى أمانة الجمارك فى الميناء، وكانت كل سفينة تدفع العشر الشرعى وكانت نتيجة المحاسبة مائة وخمسين كيسًا، وكان كيسان يوزعان على الأئمة والخطباء، ولكن بعض الوزراء كانوا لا يدفعون هذا الجمرك، وكان للجمرك حمالون من اليهود والروم والمسلمين وعددهم سبعون، وكان هؤلاء ينالون مرتباتهم من دخل الجمارك.

وفى قلاع الإسكندرية الخمس ألف جندى، وكانوا ينالون من الجمرك علوفة[1] قدرها أربعون كيسًا وباقيتها للوالى وكانت سفن للفرنجة تأتى إلى الإسكندرية والمتحصل منها مائة كيس، وكان نصيب العلماء فى العام خمسًا وعشرين كيسًا، وكان على شاطئ البحر قلعة أبو حور وكان يتحصل لها من ميناء الإسكندرية ومن سفن الإسكندرية ثلاثمائة أو أربعمائة پاره[2]، وكانت هذه السفن ترسو فى ميناء الإسكندرية، وكانت تثير النزاع والخلاف على الدوام وسكن القلعة سنان باشا.

أوصاف قلعة أبو قير

ويقول العرب إن أبو قير بنيت على صخرة فى البحر ولذلك تسمى بهذا الاسم، وفى إحدى الروايات أن أحد الأولياء هو أبو قير حمد الله مدفون فيها وسميت القلعة باسمه، ولكن يتردد على ألسنة الناس أنها تسمى أبو حور ولا وجود لأثر للقلعة القديمة. إن لها ميناءًا عظيمًا، وكان الكفار يجعلون من هذا المرفأ كمينًا لسفنهم وكانت سفن المسافرين الآتية من رودس تلجأ إلى هذا الميناء، وآخر الأمر تحدث والى مصر الطواشى للسلطان سليمان، فأمر السلطان بأن تنفق الأموال من الخزانة فجدد بها القلعة خادم سليمان باشا، وسليمان باشا هذا هو من جعل ثلاثة قبور فى مصر على طراز جوامع استانبول وكان وزيرًا مدبرًا صنع ثلاث مائة سفينة حربية فى السويس وجعل فيها عشرين ألف جندى مع خيولهم، وغادر السويس إلى بلاد الهند، وحارب مدن أحمد اباد وديو اباد وميناء حيدر اباد، وانتزعها من يد البرتغاليين واستولى على كثير من

(١) راتب كانت تدفعه الدولة كل ثلاثة أشهر قمرية.
(٢) پاره: بمعنى قطعة أو جزء فى اللغة الفارسية وهى أقل عملة عثمانية.

الغنائم، وبعد سبعة أشهر وهب هذه الموانى إلى ملك الهند، وأخذ من ملك الهند أموالا كثيرةً، وعادت السفن الحربية الإسلامية من الهند.

ومضى سليمان باشا إلى مكة المكرمة فأدى مناسك الحج، ثم زار قبر النبى ﷺ فى المدينة، وشاع أن سفينة غادرت من جدّة إلى ينبع وبعد ذلك بنى قلعة أبو قير وهى قلعة صغيرة محيط جدرانها الأربعة ستمائة خطوة وهى مستديرة الشكل، ولها باب حديدى، أمامها خندق عليه جسر وهذا الجسر يرفع فى كل ليلة، وعلى باب القلعة كتب بالخط الجلىّ (أمر بإنشاء هذه القلعة المباركة فى أيام مولانا السلطان ابن السلطان سليمان خان ابن سليم خان ابن با يزيد خان ابن محمد خان ابن مراد خان).

وبعد إنشاء القلعة بعام، أقيم فيها جامع صغير، وله منارة غير مرتفعة كما أن فى القلعة مخزنًا للأسلحة ومخازن للغلال وصهاريج للماء، وفيها ثلاث مائة جندى وفى داخل القلعة خمسة دكاكين، ولا وجود بداخلها لخان ولا حمام، وقد دفن فى القلعة أحد خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلانى وقد دفن فى غار ينزل إليه بسلم حجرى من عشر درجات، واسمه أبو قير حمد الله، ولذلك يسمون هذه القلعة قلعة أبو قير، وفيها سبعون مدفعًا، وبذلك لا يستطيع الفرنجة دخول الميناء، ويوقد مصباح فى داخل القلعة كل ليلة، وبها فانوس عظيم ويبدو على بعد مائة ميل، وخارج القلعة مائة بيت وعشرون دكانًا ومقهيان وثلاثة طواحين تديرها الخيل، ولكن لا وجود لحمام، وخارجها ميناء عظيم يحوى ألف سفينة وهذا الميناء يأمن عصف الرياح، وعلى بعد ميل من هذا الميناء جزيرة فى البحر وقد وصلتها بأمر إبراهيم باشا، وعلى هذه الجزيرة قلعة لحراستها، وقد بَلَغْتُهَا فى معية أهل رشيد وأهل الإسكندرية، وقد اكتشفنا صخرة كبيرة فى البحر، وبين قلعة أبو حور والنيل أرض واسعة ولا تستطيع سفن الفرنجة أن تقترب وهى ترى جند المسلمين عن بعد، فكانت ترفع الأعلام البيض مستسلمة، ولما أطلقت المدافع من القلعة على سفن الأعداء اشتعلت فيها النار وغرقت بمن فيها وأصبحت مظهرًا للآية الشريفة فى السفينة خرقها: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]. وأحرقت السفن وغرق كل من عليها، وانتقلوا إلى دار السعير.

واتفق أن أصيبت سفينة بمدفع فتخرقت السفينة وجعلت تميل يمنة ويسرة وأطلق بعض الألبان المدافع ففرح بذلك عمر أغا ورفع صوته قائلا الله الله، وكان اليوم يوم عيد الأضحى، وقال الناس لى إنى أنا كنت سبب هذا النصر، وفى اليوم جاء رئيس الجند وقدم خلعة لحارس القلعة كما منح الخلعة لجنود المدفعية ومنح حارس القلعة عطاء جزيلاً.

وجملة القول أن ميناء أبو حور ميناء عظيم، وقلعة أبو حور تعد من الأقاليم التابعة للإسكندرية ويحكمها صاحب القلعة وهو يحاسب محاسبة صحيحة، والإسكندرية ناحيته وهو نائب التسجيل.

ومن العجب:

أن فى هذه القلعة امرأة لها هيئة المجنونة وهى تبقى شهور الشتاء الست فى البحر وتضع رأسها على الشاطئ وكل جسدها فى الماء وبعض المواضع فتسيل منها الدماء، وبينما كان أحدهم يبحث عن الأسرى فى الشاطئ وجدوا هذه المرأة فقدموا إليها قطعة من خبز لتدفع به جوعها، ولكنها تخرج من البحر فى أيّام الصيف وتنام على الرمال الحارة وقد تفرق شعرها، ومن يشاهدها يذهب عقله، إنها بدينة مفرطة البدانة وقد دامت على هذه الحال ستين عامًا، ويقال إنها لا تكلم أحدًا قط، بل تظل صَمَّاءَ بَكْمَاءَ وقد دعت لى فلما وصلت إليها أخرجت لى من جبتها رغيفًا أبيض وفى داخل هذا الرغيف عشر تمرات وثلاثة دنانير ذهبية فيا لها من امرأة عجيبة، وسمح حاكم القلعة بعشرة من الجند حاملى البنادق وشاهدت الصيادين وهم يصيدون السمك على الشاطئ.

وفى الناحية القبلية للبحر، حتى لا يغرق إقليم البحيرة، أقام إبراهيم باشا سدًا بين الإسكندرية ورشيد، كما توجد مساكن للعرب، وقد جزتها ولكن شاهدنا ثمانية من الفرسان العرب وجرت دماءهم وقدم أهل الإقليم ونائبه وحملوهم إلى القلعة حيث دفنوا، أما من جرح بالرماح فحملوا أيضًا إلى قلعة أبو حور، ووصلت مع رفقائى إلى:

خان معديّة لَشْتُوم

وركبنا فى سفينة وعبرنا إلى الجانب الآخر، فوجدنا خانًا عظيمًا، وكان ثمة ضابط من قبل حاكم البحيرة يراقب السفن القادمة ويفتش القادمين والعائدين، وكان يقيد اللصوص منهم، وكان يتولى هذه المهمة خمسون أو ستون من الجند، وهناك نزلنا ضيوفًا فى خان من أوقاف محمد باشا فى رشيد وهو خان عظيم وليس بجوار هذا الخان صهريج من الماء العذب.

ويجبى الأغا من أصحاب الجمال والخيول والبغال والحمير ثلاثة أكياس يقدمها إلى كاشف إقليم البحيرة ولا تفضى هذه الطريق إلى الإسكندرية والسفينة هناك ملك لكاشف البحيرة وهو على الدوام يرممها ويعمرها. وثمة نهير إلى إقليم البحيرة حيث ينتهى ببحيرة وهى بحيرة تحيط بها أربعة قصور وماؤها مَالِحٌ، ولذلك سمى إقليم البحيرة بالبحيرة مائة وستين عامًا تغرق البحيرة ثمانين قرية، وفيها ألف قارب تصيد السمك، وقد أقاموا سدًا متينًا أمام الإسكندرية حتى لا تصل مياه هذه البحيرة إليها.

ويروى الإسكندرية الترعة الناصرية، ومن الإسكندرية تمضى إلى هذه الترعة آلاف السفن، واقتضت حكمة الله أن يقبض كاشف البحيرة على المجرمين العرب الذين أغاروا على مساكننا، وفى الصباح وضعوا على الخازوق سبعة منهم، ومضينا أربع ساعات فى أرض رملية حتى وصلنا شاطئ البحر كما تجولنا ساعة فى أرض ذات نخيل.

أوصاف إدكو

يقال لها فى العربية ( )[1]، وتقع فى ناحية ميناء رشيد، تغل مائة أقچه[2]، ومحصولها السنوى ثلاثة أكياس، إنها على ضفة البحيرة فى مكان مرتفع، تضم أربعة آلاف بيتُ، سبعة عشر محلة، وعشرين محرابًا، وستة جوامع إضافة إلى المساجد، وبها ثلاث وكالات، وثلاثمائة دكان، ولكن لا سوق ولا حمام فيها، وشوارعها غاية

(١) بياض فى الأصل.

(٢) عملة كانت تستخدم فى الدولة العثمانية منذ أول نشأتها سُكّت من الفضة.

فى الضيق تتسع لمرور اثنين بصعوبة بالغة وكل بيوتها تطل من الناحية القبلية على البحيرة إنها قصبة جميلة ضيقة، وكل مياهها مياه آبار إلا أن بها بعض الملوحة، وكل أهلها من وجوههم غاية فى الثقل ولون وجوه أهلها يميل للصفرة، وليس بها جمال لنسائها ولا رجالها، والفقراء فيها كثير، وفى الجانب الجنوبى منها تغرق البيوت، ولذلك غادر بعض أصحاب البيوت بيوتهم، كما يغرق الناس آخر الأمر، ومن الحق أن قوم البحر تتفاوت أحوالهم من يوم إلى آخر، والطريق إلى رشيد طوله ساعتان وعرضه ساعة واحدة، وثمة بساتين للنخيل، ومنها نخلات طوال الواحدة منها بطول قامة الإنسان، وكل نخلة تثمر مائة أقة من التمر الأبيض والأصفر والأحمر والأسود، ولها تمر لذيذ مختلف الأنواع، وهى بلد تكرم وفادة الغرباء ولكنهم يملكون جامعًا أبيض جميلا، وتبدو بها سبع منارات.

بيان من دفن فى أدكو من كبار الأولياء

فى غرب المدينة على شاطئ الخليج الشيخ سلامة، وأخوه الشيخ صنع الله والشيخ عبد الرءوف والشيخ عبد الخالق وهم فى ضريح أبيض جميل، وبالقرب منهم على شاطئ الخليج فى ضريح مرتفع الشيخ عبد الله المَغْرِبى، وعلى شاطئ الخليج خمسة أضرحة بيضاء هى مرقد الشيخ سلامة ابن الشيخ مجيب الدين وفى هذه الأضرحة الخمسة دفن أبناءه وفى الناحية الشمالية دفن الشيخ خلف، والشيخ محمد حميدى.

وفى الناحية الشرقية الشيخ سيد محمد چلبى وهو خليفة السلطان أحمد البدوى، وفى الناحية الغربية الشيخ محمود چلبى، والشيخ منصور، وعلى مقربة من جامع كرد بك الشيخ سيد إبراهيم، وجامع سيدى على الجبرتى، وهو مدفون كذلك فى الجامع، وفى ساحة الجامع الشرقى دفن الشيخ هارون نهاوى، وقبره يزار وبعضهم يقرأ على روحه (يس) وبعضهم يقرأ (الفاتحة)، وطلبنا المدد من روحهم الشريفة ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ، وعبرنا أرضًا ذات رَمْلٍ إلى الشرق، وبلغنا ساحل البحر

الأبيض، وفى الرمال علامات تدل على طريق رشيد وتابعنا السير. ووصلنا إلى رشيد من إدكو فى أربع ساعات.

أوصاف ميناء رشيد

وسبب تسمية المدينة برشيد أنه بعد الطوفان مَلَك مصر بيظر بن حام وأخوه الأكبر سام وقد دعا نوح بالخير لحفيده، وبعث به إلى مصر، وكانت له فيها ذرية، وأنجب فى مصر ذرية من ثلاثين ولدًا، ولذلك سمى بأبى الأقباط، وانتشر كل ولد منهم فى مصر وبنا له مدينة وكان لولد منهم اسم رشيد وبما أنه بنا هذه المدينة، لذلك سميت المدينة باسم رشيد، إن النيل يصب فى البحر الأبيض عندها وهى مدينة عظيمة إنها عروس مصر، ولها حكم الإقليم، وقدره فى كل عام من ديوان مصر اثنا عشر كيسًا، ولرشيد قائم مقام يتولى إدارة شئونها، وجميع السفن والحمالين تحت حكمه، وهو يقدم إلى الوالى سنويًا مائة وخمسين كيسًا وراتبه عشرة قروش فى اليوم، وتحت رياسته مائة وخمسون من خدم الجمرك، وجميع القرى تخضع للالتزام، وفى المدينة أكثر من ألفى سوق، ولا وجود فيها لبيت خرب، وجميع بيوتها ذات أسطح وهى من طابقين أو ثلاثة أو أربعة، وكل بيوتها مخازن للأثاث. ويصعد إلى أبوابها بسلم من الحجر، وفى الطابق الثانى أبواب، وفى هذه المدينة خانات لنزول الضيوف، وفى الطوابق العالية، النوم، وعدد بيوتها تسعة آلاف بيت وستمائة، وهى للمسلمين، وفيها أربعون محلة ومائتى محراب، وسبع محلات لليهود، ولكن لا وجود فيها لمحلات للفرنجة والأرمن والغجر، إلا أن هؤلاء يغدون ويروحون للتجارة.

وثمة محلة للقبط واليهود، وأعيان مصر يعتمدون عليهم ككُتَّاب لهم، مما سبق ذكره نتبين أن البيوت فى رشيد اثنا عشر ألف بيت، وفى هذه المدينة تؤدى صلاة الجمعة، وفيها كثير من الجوامع، وفى الميناء جامع كبير يسمى جامع زغلول محمد، طوله مائة وسبعون خطوة، وداخل هذا الجامع مائتان وستون عمودًا من المرمر على رءوسها قباب، وفى أطراف حرم هذا الجامع مائة وخمسون قبرًا، وفى داخل الجامع أربعة محاريب للمذاهب الأربعة، وثلاثة محاريب كبيرة وواحد منها صغير، كما أن له قبة ومنبر صغير

من خشب، وشرفتان للمؤذن وله حَرَمَان صغيران، وفى وسط الحرم الأيمن سبيل، وللجامع ستة أبواب وله منارتان وهما عاليتان، ومن ثلاثة طوابق، وفيه مقصورة دفن فيها محمد زغلول وأربعة من أوجه رجال الإفْتَاء، إنه جامع واسع كان فى أول الأمر جامعًا صغيرًا، وتاريخه مكتوب على أعلى بابه وهو:

(أمر بإنشاء هذا الجامع الجديد السيد محمود).

وجامع العطار يصعد إليه بسلم حجرى يتألف من خمس درجات، وجامع (تق نهيمه) مبنى على ثمانية أعمدة من الرخام، وهو صغير يتسع لمائتى مُصَلٍّ، وله ثلاثة أبواب ومنارة، ويصعد إليه بسلم حجرى يتألف من خمس درجات.

وجامع عبد الله يتسع لمائة مُصَلٍّ، وهو غاية فى الصغر وله منارة قصيرة، وجامع الخواجة وهو جامع مرتفع، وله منارة وبما أنه على المرفأ يؤمه ناس كثيرون، ويصعد إليه بسلم حجرى يتألف من عشرين درجة.

وجامع الأمير أحمد أغا جامع مرتفع جميل وهو على شاطئ النيل وطرفاه على الطريق العام، ويصعد إليه من ناحيتين بسلم من الحجر، ويقع على شاطئ النيل وبداخله عشرة أعمدة من الرخام، وعلى باب قبلته:

(وعمر هذا الجامع الأمير أحمد أغا سنة اثنين وستين وألف).

وله منارة جميلة ومؤذن وإمام وخطيب، ويزدحم بالمصلين، وفى داخل الميناء جامع جمال الدين أغا، وهو جامع مرتفع ويصعد إليه من جانبين بسلم حجرى وهو جامع مرتفع.

وثمة سبعة مخازن ودكاكين على الطريق العام، وفى داخل الجَامِع اثنا عشر عموداً من الرخام عليها سقف مزخرف، وله قبتان، وعلى القبتين تاريخ هو:

(أن عين العلا على الفعال، خاتم الجود من سما بالجمال. قلت تاريخ أنشا على الجمال جامع لمن اللطيف محكمًا بالجمالى سنة ١٠٧٤).

وهذا الجامع ليس له حرم ولكنه يزدحم بالمصلين ليلا ونهارًا، وله منارة قصيرة، وفى صُفَّتِهِ الداخلية قيشانى أرض المغرب فى بعض مواضع منها، وهو لصاحب الخيرات أحمد باشا وهو أحد الأثرياء، وقدم إلى رشيد من مسقط.

وجامع الزمين جامع تحتانى يزدحم بالمصلين له سقف منقوش مقام على أحد عشر عمودًا، وله ثلاث قباب، ومنارته قصيرة وهو جامع صغير.

وجامع العراقى يصعد إليه بسلم يتألف من خمس درجات، وبه عشرة أ عمدة تحمل سقفًا مزخرفًا، ومنبره من الخشب وله ثلاثة أبواب، ومنارته قصيرة ولا حرم له والعراقى مدفون على يسار المحراب قدس سره.

وجامع نَسِى يقوم على ثمانية أعمدة، وهو صغير، وثمة مساجد أخرى، وتبدو لها خَمْسٌ وعشرون منارة.

ثمة سبعون من الخانات ومنها خان (قول قران) محمد باشا، وهو يشبه القلعة، ويتألف من طوابق، وخان أحمد باشا، وخان أيبك، وخان قنا خان خواجه أحمد أغا، وخان قاسم بك، وخان مصطفى بك، وخان إسحاق أفندى، وخان سنان باشا، وخان على جمال الدين، وهى خانات مشهورة ويسكن كلا منها خمسين أو مائة أسرة، كما أن لها بابًا من حديد، وبها سبع مدارس، وسبعون مكتبًا للصبيان، وستة سبل وثلاثة آلاف وأربعون دكانًا، وسوقان، لها بابان من حديد، وفيها مائة دكان وكلها أبنية متينة، وفيها تباع الألبسة والأقمشة الفاخرة وفيها سوق لبائعى الجواهر، وسبعون مقهى ومائة طاحونة تديرها الخيل، وأربعون طاحونة زيت، وأربعون مصبغة وثلاثون مضربًا للأرز وستة آلاف وستون مخزنًا، وسبعون حانة، وتمتلئ كل منها بمدمنى الشراب وعشرة حانات للبوظة وخمسة حمامات وحمام الحاج نعمت الله نظيف طيب الهواء يأتى إليه ماء النيل بدولاب فيه، وخدام هذا الحمام ثيابهم نظيفة والدلاكون فيه ثيابهم نظيفة، وكذلك خدامهم، ولكن هذا الحمام جديد، ويقال إن الحمام القديم هو النافع وقد بنا السلطان سليم بها حمامًا، وهو حمام عتيق، وإذا وضع فى حوضه مصاب بالجذام شفى

بإذن الله بعد أربعين يومًا، وحمام البوستانجى حمام كبير، أما حمام خواجه عبيدى وحمام قوبدان باشا فحمّامَان للخواص والعوام، وجو هذه المدينة يشبهه جو بلاد الروم، وفيها يهطل المطر بغزارة، وينزل الجليد والبرد لأن مدينة رشيد فى أول الإقليم الثالث، ولذلك فيه من الفتيات والفتيان من العرب من يتصفون بالجمال، ويتكسب أهل رشيد من التجارة، ونصفهم من أهل الحرف؛ ولذا فإن أهل هذه المدينة فى رَغَدٍ من العيش، ويقيم بعضهم للبعض الولائم فى كل ليلة، ويقيمون المولد الشريف فى الليلة خمس أو عشر مرات وفى الأسبوع يقيمون حفلات العرس أربعْ أو خمس مرات، ويباع خمسون رغيفًا من الخبز الأبيض ببارة واحدة، والرطل الإسكندرانى من اللحم ببارة، كما يباع قنطار السكر بعشرة قروش، ويباع أردب الشعير بمائة، ويأتى إليها ألف سفينة فى العام، وفى المدينة حدائق ذات بهجة وفيها تين وجميز وخوخ وليمون ونارنج، وعلى ضفتى النيل حدائق وبساتين وكل ما أنعم الله به على الإنسان موجود فى هذه المدينة، ويلبس أعيان المدينة فرو السمور والجوخ والثياب الفاخرة، أما الطبقات المتوسطة من أهل المدينة، وهم أهل حرف، فيلبسون الثياب ذات الألوان. والأغنياء يلبسون حرير دمياط والفرسكور الملون، والفقراء يلفون حولهم ثوب الإحرام وهم يعيشون فى كفاف ويكدحون، وفى الجانب الغربى من هذه المدينة لهم بيوت صغيرة يقيمونها على الرمال، وليس فيها بعوض، أما نصف المدينة إلى شاطئ النيل ففيها بعوض يشرد النوم، ولذلك ينام كل واحد منا فى كِلَّة[1] دفعًا للبعوض، وأهل هذه المدينة يأمنون الذباب، وطول المدينة إلى تكية عبد القادر الجيلانى ألف وخمسمائة وعشرون خطوة، وعلى ضفة النيل قصور شامخة وفى النيل مرافئ يُنزلون فيها البضائع من السفن وجميع المنازل التى على ضفة النيل تطل نوافذها عليه، وشوارعها واسعة نظيفة وهى ستمائة وعشرة، أما أهلها

(١) الكِلَّةُ: ستر رقيق ذو ثقوب يرفع فوق السرير ليتوقى به من البعوض وغيره. انظر: المعجم الوجيز، ص٥٤٠.

فهم يحبون ويكـرمون الغرباء ولا يخرج النساء إلى الطريـق إلا إذا اضطرتهن إلى ذلك ضرورة ملحة، والناس يشعلون المصابـيح ليلاً ويزورون ذوى قرباهم، وتجول النساء فى السوق يعد عيبًا كبيرًا، وقد كتبت أوصاف هذه المدينة على حد علمى، ولو خضت فى التفاصيل لاقتضى ذلك منى مجلدًا فاكْتفيت بما ذكرت.

قبور الأولياء داخل وخارج المدينة

فى وسط السوق السلـطانى بالمدينة قبر الشيخ سيد عـلى المحلاوى، وقد تحدث عنه الشيخ الشعراوى فى كـتابه (الطبقات)، إنه مدفون فى موضع بالـقرب من جامع الشيخ منصور، وله ضريحٌ عظيم، وبجواره قبر الشيخ عبد الله الصانت وضريح الشيخ محمد البرى والشيخ أحـمد طوقا وقبر الشيخ أحمد المَـغْرِبى والشيخ سيد عثمـان برهانى وقبر الشيخ سعيد سعد الله وقبر سيد محمد الشندويلى، وفى رشيد القديمة على شاطئ النيل وفى الرمل قبر الشيخ سلطان بالقرب من جامع فى كوم أفراح، وكل السفن التى تمر به يقرأ من بها له الفـاتحة، لأنه قطب عظيم ومناقبه لا تدخل تحـت حصر، وله تكية تزار وفى هذا الموضع كذلك دفن كبار الأولياء، وثمة نحو مائة قبر لم يتيسر لنا معرفة أسماء مَنْ فـيها، وفى هـذه الجهة مقـبرة رشيـد ولله أحمد أنى سـألت عن هؤلاء الأقـطاب فوجدتهم وقد مرغت وجهى على ضرائحهـم وعرفتهم رحمة الله عليهم أجمعين، وفى غرب رشيد حدائق ونخيل، وتجولنا فيها ساعة وامـتطينا خيولنا وكم من حديقة شاهدنا وفى بعض الحقول أكلنا ثمارًا يانعة.

أوصاف قلعة رشيد

هى التى بناها الظاهر بيبرس خوفًا من الفـرنجة، وتقع على شاطئ النيل، وبعد بنائه لها بعام واحد وَسَّعها السلطان قايتباى، وعلى بابها هذا التاريخ:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا البرج المتين السلطان المالك الممالك الأشرف أبو النصر قايتباى عَزّ نصره سنة ثمانمائة).

وفى داخل القلعة دار للمشرف عليها ومخزن لـلقمح وصهريج يستمد ماءه من النيل وجامع قايتباى وأربعون بـيتًا للجند، ومحيطها مائة خطوة، وكـل الأبنية التى فى داخل القلعة أقامـها قايتباى، وأقام على باشا بـناءًا مربعًا خارجها وهو قلـعة من طابق واحد وهذا البناء بناءٌ رصين، وفى كل ركن من أركـانه الأربعة برج وكل برج من هذه البروج قلعة حصينة ومـحيطها أربعمائة خطوة، وفى أرض كثيرة الوحـول لا خندق فيها، ولها باب من حديد يطل على الجنوب، وعلى الباب تاريخ يأخذ منه أن بانى القلعة هو على باشا وزير الرى العادل، وداخل الـقلعة ستون بيتًا للجند، وفى ركـن داخل القلعة دفن حسين كوردى وفى القلعة سبعون مدفعًا، ومخـزن أسلحتها عظيم، ولها مشرف، وفيها جنود، ينالون مرتباتهم من الجمرك.

وثمة قلعة تجاه نهر النيل وهى قلعـة أحمد باشا، وهى فى موضع كثير الرمال، وقد تخربت عـلى مر الأيام، وبعض آثـارها ما زالت ماثلة لـلعيان، ولها مـشرف وجنود، وبيوتها بين الـنخيل، ولكن عشرين منها قـد انْهَدَمَ، وبين النخيل بيت للـمشرف فيها، وعشرون بيت للفقـراء. وكانت قلعة معمورة قديمًا، وكانت مع قلـعة رشيد الواقعة فى مدخل مـيناء رشيد، وضـريح أحمد دده فى قـبر أبيض بـداخلها، وقد شـاهدت هذا الموضع كذلك، والسفن تجرى منحدرة فى النيل.

أوصاف بوغاز رشيد

وهناك يلتقى النيل بالبحر الأبيض، وهذا ما يسمونه موضع «مرج البحرين»، أما إذا عصفت الريح فإن السفن لا تجرى، وتبقى السفن فى البوغاز مدة شهرين أو ثلاثة، وقد أصبح هذا البوغاز بـحمد الله سدّا فى وجه الكفار وتحمل السفن حـمولتها، وإذا كانت حمولتها خـفيفة خرجت من البوغاز وتـدفع السفن الجمارك، ثم تنشـر قلوعها وتجرى ويقول من عـليها توكلنـا على الله، وتدخل البحـر ولو كان البوغاز هكـذا على الدوام لخرب الكفـار رشيد، وإذا رأت سفينـة مدينة رشيد فيـنبغى أن تستـأذن فى الخروج من رئيس الميناء إنه ميناء صعب وكم من سفينة تغرق فى كل سنة.

ورئيس الميناء يتقاضى من كل سفينة أربعين أو خمسين قرشًا، وكما يقدم رئيس الميناء للوالى ألف قرش كشوفية، وفى كل سنة يجرد ما لديه ورئيس الميناء من الرَّبَّابِنة ولا يعرف البوغاز شخص آخر سواه، ففى موضع يكون الماء فيه ضحلا وفى آخر يكون الماء عميقًا، وأما فى وسط البوغاز فطريق عام يحدده القرع العائم، وحينما يفيض النيل ويصبح كالبحر يدخل البحر الأبيض مائة ميل، ويَتَلَوَّن ماء النيل بالحمرة ويعرف من فيها أن مدينة رشيد قريبة والدعاء مستجاب فى هذا البوغاز، ويمضى بعض أهل الحال والسلوك فى قواربهم إلى هذا البوغاز ويتعبدون، ولأن مرج البحرين ورد فى القرآن كما أن موسى ـ عليه السلام ـ فارق الخضر فى هذا الموضع قال: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، وفى البوغاز جزيرة بها ضريح موسى ـ عليه السلام ـ والخضر ولذلك يأتى إليها كثير من الشيوخ لزيارتهما، وفى هذا الموضع تلتقى الرياح، وهذا الموضع يبعد عن النيل بمقدار خمسين ميلا، وتعلم السفن فى النيل أن النيل يختلط بالبحر، وإذا ذاق من فى السفن ماء النيل ليلا ووجدوا ماءه عذبًا أدركوا أن البوغاز قريب، فلا تقترب السفن من الشاطئ، ولم أستطع عبور هذا البوغاز، ثم ركبنا خيولنا وبلغنا الإسكندرية بعد فى عشر ساعات.

وخلاصة القول أنه بحمد الله بلغنا الموضع الذى يختلط فيه ماء النيل بماء البحر وزرنا ضرائح كبار الأولياء وصلينا ركعتين فى القارب ودعوت الله أن يمكننى من زيارة مصر بأسرها لأنها جنة المأوى كما جاء فى الحديث الصحيح[1].

وقلنا آمين يا معين بحق حرمة سيد المرسلين فعدت ثانية إلى ميناء رشيد وودعت جميع رفاقى خصوصًا شيخ زاده عبد الرحمن أفندى والحاج نعمت الله ومندل زاده مصطفى أغا وسائر أرباب الطريقة وركبنا السفينة، وحملنا فيها كل المأكول والمشروب

---

(١) حدّث نبى الله ﷺ أنه رأى أربعة أنهار تخرج من أصلها (يعنى سدرة المنتهى) نهران ظاهران ونهران باطنان، أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات». انظر: صحيح مسلم بشرح النووى (١/ ٩١٨) والبخارى فى المناقب (٣٨٨٧).

وهى سفينة تغدو وتـروح وهى محمَّلة بالعزب والمدافع، كما أن مَنْ فـيها من المسافرين يحملون الأسلـحة، ولأن جزر النيل بها سُفُنًـا للصوص وهـم يغيرون بغتـة على السفن فيقتلون كل من فيها وينهبون أموالهم، فلا بد من أخذ الحذر منهم، فتوجهت إلى مصر فى سفينة مسلحة.

* * *

obeikandl.com